مشاهير العرب

٥

أبو مسلم الخراسانى

محمد عبد الغنى حسن

دار المعارف

أبو مسلم الخراساني

مشاهير العرب

(٥)

أبو مسلم الخراساني

بقلم

محمد عبد الغني حسن

الطبعة السادسة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

دعوة سرية

فى سنة ١٠٠ من الهجرة ، بينما كان القرن الأول يدنو من الانتهاء قليلا قليلا ليدخل العالم فى بداية قرن جديد ، كانت الدنيا تشهد ميلاد طفل اسمه « إبراهيم بن عثمان بن يسار » . وكان مولد الطفل فى قرية من قرى أصبهان اسمها « ماه البصرة » ، وهى بالطبع غير مدينة البصرة الواقعة على مصب دجلة والفرات .

واستقبل الطفل الحياة كما يستقبلها آلاف الآلاف من المواليد كل يوم ، وكل ساعة من نهار ، وكل لحظة من ليل . لم يدر به أحد إلا أمه التى ولدته ، وإلا أبوه الذى أنجبه ، وإلا تلك الحفنة القليلة أو الكثيرة من الأهل والأصدقاء والجيران .

لم يتمتع الطفل طويلا بالحياة فى كنف والديه ، فماتت أمه وهو صغير ، ومات أبوه وهو فى بضع سنين من عمره ، وكان أوصى به إلى رجل من أهل اليسار أو صديق من أهل الجاه اسمه عيسى بن السراج . فحمله هذا إلى الكوفة وهو ابن سبع ، ومن هنا كانت نشأته فى تلك لعاصمة الإسلامية التى اشتهرت بكونها من منابع الدولة العباسية التى قامت على أنقاض دولة بنى أمية .

وأخذ الوليد يدرج وينشأ فى الكوفة ، وكانت تشتهر بأنها مركز من

مراكز التشيع لأهل البيت . وكان أهلها يعطفون على أهل رسول الله عطفاً شديداً ، ويرون أنهم أحق بالخلافة من الأمويين ، وأنهم قوم غلبوا على أمرهم .

وكانت فكرة التشيع لأهل البيت تنتشر قليلا قليلا ، وخاصة فى أرض الكوفة وما حواليها ، وفى أجزاء من العراق ، وفى بقاع من خراسان ، إلا أنها كانت مطبوعة بطابع السرية والخفاء ، مخافة أن يظهر أمرها لرجال بنى أمية وولاتهم وعمالهم على الأقاليم فيقصدوا أصحابها بسوء .

وأهل البيت قسمان كبيران : العباسيون وهم أبناء على بن عبد الله بن عباس عم النبى عليه السلام ، والطالبيون ، وهم أبناء على بن أبى طالب ، وأبو طالب هو أحد أعمام النبى . وبهذا يلتقى العباسيون والطالبيون فى عمومة الرسول عليه السلام .

واقترن مولد الوليد إبراهيم بن عثمان بن يسار بمولد الدعوة السرية لتأسيس الدولة العباسية . فكأنما كان ميلاده معها على ميعاد . فمنذ سنة ١٠٠ هجرية وأرض الكوفة وما حواليها تشهد جماعة من الرسل متنكرين فى أزياء الحجاج ، وملابس التجار ، وبعضهم يمر بالكوفة ، ثم يعرج منها إلى قرية صغيرة يقال لها « الحميمة » .

وفى هذه القرية الصغيرة الهادئة التى يخيم عليها صمت عميق ، كأنها تحمل سرًّا من الأسرار لم تبح به لإنسان ، كان يقيم محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، حيث أكرهه بنو أمية وأكرهوا أباه من قبل على

البقاء فيها بعيداً عن معترك الحياة اتقاء لخروجه عليهم ، وأمناً لدعوته ضدهم . وكأنهم ضمنوا فى هذا المنفى البعيد أن لا يخرج على دولتهم خارج ، أويثور عليهم من أهل البيت ثائر .

وقد خاب تدبير بنى أمية حين ضيقوا الخناق على بنى العباس فى الكوفة وما حواليها ، فقد كتم أبناء العباس دعوتهم السرية كتماناً شديداً ، وأحاطوها من أسباب الخفاء بما يضمن نجاحها واتساعها . وبلغوا من البراعة فى ذلك مبلغاً عظيما . حتى كان زعيمهم محمد بن على بن عبد الله ابن عباس مبالغاً شديد الحذر فى أمر الدعوة ، حتى لا ينكشف أمرها ، ولا ينفضح سرها . وكان يرى أن انتقال الخلافة من بيت إلى بيت ، ومن يد إلى يد ، لا يجىء طفرة ولا مفاجأة ، وإنما لا بد له من الاستعداد المحكم ، والتدبير المبرم ، والروية المصحوبة بالحزم ، والأناة مع اليقظة ، وإلا تعرضت الدعوة للفشل ، وباءت وباء أصحابها بالخسران . .

ومضت الدعوة العباسية فى سريتها التامة ، وفى تكتمها البالغ الشديد منذ قيامها سرًّا سنة ١٠٠ هـ إلى سنة ١١٧ هـ ، وهنا كان الوليد إبراهيم ابن عثمان بن يسار قد بلغت سنه سبعة عشر عاماً ، لأنه ولد فى مطلع القرن الثانى كما قلنا ، وكان الخليفة الأموى الجالس على كرسى الخلافة فى دمشق هو الرجل الطيب الزاهد ، والمسلم المثالى الصالح ، والحاكم العادل : عمر بن عبد العزيز .

فى هذه السنة — أى سنة ١١٧ هـ — جمع محمد بن على بن عبد الله

ابن عباس جماعة من دعاته الذين أراد توجيههم إلى الأمصار ليقوموا بنشر الدعوة . وكان لابد له أن يعرفهم بحالة كل قطر ومبلغ تعصبه للعباسيين أو تعصبه ضدهم . وهو رجل كان فيه كثير من الذكاء والدهاء . فقد بايع الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان بعد أن دانت له الأقاليم الإسلامية . واستتب له السلطان ، وذلك مداراة له واتقاء لشره . ولكنه فى الوقت نفسه بدأ الدعوة السرية ، وألف الدعاة ، وكتم اسم الرجل العباسى الذى يدعون له مخافة أن يصاب بسوء . ولم يعرف اسم الخليفة العباسى الذى يدعون إليه إلا نقباء الدعوة السرية وعددهم اثنا عشر نقيباً .

وفى ليلة ساجية من ليالى الصيف فى قرية « الحميمة » انتهز محمد ابن على بن عبد الله بن عباس غفلة من الرقباء ، وغفوة من العيون . فجمع نقباءه الاثنى عشر . وهم سليمان بن كثير ، ومالك بن الهيثم ، وطلحة بن زريق ، وعمرو بن أعين . وعيسى بن أعين ، وقحطبة بن شبيب . ولاهز بن قريظ . وموسى بن كعب ، والقاسم بن مجاشع ، وخالد بن إبراهيم ، وأبو على الهروى . وعمران بن إسماعيل ، وأخذ يتبادل معهم وجوه الرأى فى الدعوة ، ويدرس معهم حالة الأمصار ، فكان مما قاله لهم : (أما الكوفة وسوادها فشيعة علىّ وولده ، وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف . تقول : كن عبد الله المقتول ، ولا تكن عبد الله القاتل . وأما الجزيرة فحرورية مارقة ، وأعراب كأعلاج ،

ومسلمون فى أخلاق النصارى ، وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبى سفيان ، وطاعة بنى مروان ، وفيهم عداوة راسخة وجهل متراكم ، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر . . ولكن عليكم بخراسان ، فإن هناك العدد الكثير ، والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة . لم تتقسمها الأهواء ، ولم يتوزعها الدغل ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ، ومناكب وكواهل ، وهامات ولحى ، وشوارب ، وأصوات هائلة ، ولغات فخمة ، تخرج من أجواف منكرة . .) .

أمير خراسان

استمر الإمام محمد بن على بن عبد الله بن عباس فى دعوته السرية ، ثم تحولت إلى دعوة علنية للرضا من أهل البيت النبوى الكريم ، ولم تكن هذه الدعوة أول أمرها مصحوبة بالعنف أو القوة ، وإنما كانت دعوة قوامها الكلام ، وكان العيون والجواسيس يترصدون القوم فى كل مكان ، حتى فى خراسان ، التى كانت مركزاً قوياً حصيناً من مراكز الدعوة العباسية ، وكان أمير خراسان من قبل البيت الأموى رجلا قوى الشكيمة . شديد البأس اسمه « أسد بن عبد الله القسرى » وقد ترامت إليه أنباء هذه الدعوة المتفرقة فى شعاب الأرض من خراسان ، فأمر بجمع من تقدر الشرطة عليه من هؤلاء الدعاة ، فلما كانوا بين يديه أمر بأيديهم وأرجلهم أن تقطع ، وأن يصلبوا . ولكن هذه القسوة لم تثن القوم عن طريقهم ، ولم ترهبهم عن المضى فى دعوتهم ، بل ازدادوا صلابة واستمساكاً ، إلى أن ظفر بجماعة جديدة منهم ، فيهم سليمان بن كثير – شيخ الدعوة – ومالك بن الهيثم ، وموسى بن كعب ، وطلحة بن زريق وغيرهم ، فأمر بهم أن يقفوا بين يديه ، فوجه الكلام إليهم قائلا :

– يافسقة ! ألم يقل الله : عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه ، والله عزيز ذو انتقام ؟

فقال شيخهم سليمان بن كثير :

– أأتكلم أم أسكت أيها الأمير ؟

قال : تكلم !

وأخذ الشيخ يتكلم بكلام فيه كثير من الدهاء وحسن التخلص ، فقد حاول أن يبرئ نفسه من تهمة هذه الدعوة ، وتوسل إليه بما بينهما من عصبية النسب القحطانى ، فالأمير القسرى من اليمن ، وهؤلاء الدعاة من اليمن . و إنما الذين وشوا بهم جماعة من المضرية – أى العدنانية – قصدوا من هذه الوشاية الثأر لهم من موقف اتخذه اليمانية من القائد قتيبة بن مسلم . . .

وبهذا الجواب المحكم السديد ، وبهذه الروح العصبية بين القبائل تخلص هؤلاء النقباء فى موقف حرج من خطر كان محدقاً بهم . . .

وفى خلال هذه الأحداث كان الفتى إبراهيم بن عثمان بن يسار قد بلغ مبلغ الشباب قبل العشرين بقليل ، وكان مولاه عيسى قد باعه إلى شيخ من شيوخ الشيعة بالكوفة اسمه بكير بن ماهان ، ثم أسلمه بكير إلى الإمام محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، حيث انتقل إلى وصاية الإمام إبراهيم بن محمد الذى كان إمام الدعوة العباسية فى قرية « الحميمة » بعد وفاة أبيه .

وهنا نجد الإمام إبراهيم يثق فى الشاب ثقة لا حد لها ، ويتوسم فيه من علامات الرأى والتدبير ، والعقل والتصميم ، ما يجعله يلقى عليه عبء الدعوة فى خراسان ، فيدعوه إليه قائلا :

– من اليوم لم يعد اسمك ابن يسار كما يدعوك القوم ، ولا ابن أسفنديار كما يقال عنك .. وإنما اسمك عبد الرحمن بن مسلم ، وستكنى بأبى مسلم !

ومنذ هذه اللحظة اختفى كل اسم قديم كان يحمله هذا الشاب الجرىء النجيب ، ولم يبق له إلا اسم واحد : هو أبو مسلم الخراسانى . .

* * *

كأنما كان اختيار أبى مسلم الخراسانى من قبل الإمام إبراهيم بن محمد أميراً على خراسان اختياراً أدركته العناية الإلهية حين تهيء لكل شىء الأسباب . . .

فقد كانت خراسان تموج بالفتن والثورات بين أصحاب العصبيات ، وخاصة أهل اليمن ، وأهل نزار بن عدنان . وكان النزارية أنفسهم منقسمين بعضهم على بعض . فهناك ربيعة فى جانب وعلى رأسهم شيبان الحرورى الخارج على الدولة الأموية ، وهناك مضر فى جانب آخر ، وعلى رأسهم نصر بن سيار وهو والى خراسان من قبل الأمويين . أما اليمانية فكان على رأسهم « الكرمانى » وهو عربى قحطانى ولد بكرمان من أرض العجم فنسب إليها .

فلمَ لا يستفيد الشاب الداهية أبو مسلم الخراسانى من هذه الظروف الملائمة والفرص المواتية ، ويضرب هذه الأحزاب بعضها ببعض ، ليأكلها جميعاً ، ويكون له الأمر من دونها جميعاً ؟

السواد شعار العباسيين

سارت الأمور منذ سرية الدعوة العباسية سنة ١٠٠ هـ إلى سنة ١٢٩ هـ سيراً وئيداً متزناً مصحوباً بالحذر والحرص كما أراد لها الأئمة من أهل البيت ، وكان قيام الفتن والثورات فى خراسان وفى غير خراسان ، كما كانت بوادر الضعف والتفكك فى البيت الأموى ، عاملا مهما فى سير الدعوة العباسية قدماً إلى طريق النجاح .

وفى رمضان سنة ١٢٩هـ، بل وفى أول يوم من ذلك الشهر الذى يمثل مجاهدة النفس فى الإسلام دخل أبو مسلم أرض خراسان ، وقد أظهر الدعوة وجاهر بها ، بعد أن لم يكن هناك بد من المجاهرة . فخراسان مشغولة بالقتال بين ثلاث طوائف ، وأميرها الأموى نصر بن سيار مشغول بقتال الكرمانى وشيبان الحرورى معاً ، وبلغ من قوة شيبان أنه دعا لنفسه بالخلافة ، متحدياً خلافة الأمويين القائمة ، ومتحدياً دعوة العباسيين إلى الخلافة . وكان أصحابه يقفون بين يديه ، ويسلمون عليه كما يسلم على الخلفاء .

وهنا نرى شعاب خراسان تمتلئ بالوافدين على أبى مسلم الخراسانى معلنة الدخول فى حوزته ، والانضمام إلى رايته .

وفى قرية صغيرة من قرى « مرو » يقال لها « سفيذنج » نزل

أبو مسلم ، ومنها بدأ دعوته ، وأخذ يتنقل بين قرى خراسان ، حتى انضم إليه فى يوم واحد أهل ستين قرية .

وكان الناس يتهامسون قبل ذلك بالدعوة العباسية ، والآن لم يعد هناك حاجة إلى الهمس . فكان الرجل يلقى أخاه فيدعوه جهراً إلى العباسيين ، ويخلع من رقبته طاعة الأمويين .

واجتمع من أهل القرى خلق كثير ، فرفع أبو مسلم رايتين على رمحين طويلين ، طول أحدهما أربع عشرة ذراعاً ، وطول ثانيهما ثلاث عشرة ذراعاً . وكانت الرايتان مما بعثه إليه الإمام إبراهيم ، واسم الأولى « الظل » ، واسم الثانية « السحاب » .

وفى وسط الجموع الزاخرة المتدفقة خلف اللواء الأسود ، والراية السوداء ، مال أحد الخراسانيين على صاحبه سائلا :

– لماذا هذا اللون الأسود الذى اتخذت منه الرايتان ؟

– إن هذا اللون شعار العباسيين ، اتخذوه تمييزاً لهم من الأمويين .

– إذا كانوا اختاروا السواد لراياتهم وألويتهم لما ذكرت ، فلمَ اتخذوه فى لباسهم ؟

– إنهم يا أخى يتشبهون بالنبى عليه السلام حين دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه عمامة سوداء ، فجعلوا السواد شعارهم فى الأعياد والجمع والمحافل . واستمر الجمع يتزايد ويتدافع ، وأبو مسلم فى المقدمة ، وهو يتلو قوله تعالى :

(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وأن الله على نصرهم لقدير) .

ووجد أبو مسلم فى قرية سفيذنج مكاناً حصيناً يتحصن به إذا ما هاجمه أحد خصومه الثلاثة من الأمويين والحروريين وأنصار الكرمانى ، فأمر بترميم الحصن وتقوية أسواره ، وتدعيم جدرانه . وظل معتصماً به أسابيع من شهر رمضان . ولما جاء عيد الفطر دعا الشيخ سليمان بن كثير لكى يصلى به وبمن معه من الشيعة والأنصار ، وأقام له منبراً فى العسكر .

وصلى ابن كثير صلاة العيد بغير أذان ولا إقامة ، ثم خطب بعد الصلاة . فكان ذلك على غير ما كان يفعله بنو أمية من البدء بالخطبة ثم الإقامة للصلاة كصلاة يوم الجمعة . وكبر المصلون لركعتى العيد على غير ما كان يفعل بنو أمية . فاستبشر الناس وأيقنوا أنهم منذ ذلك اليوم دخلوا فى عهد جديد .

وانصرف الناس من صلاة العيد ، وقد أعد لهم أبو مسلم طعاماً ، فأكلوا منه هنيئاً ، وأخذوا يتبادلون عبارات التهانى . وهنا سمع صوت فى المعسكر يقول : خلوا « السحاب» و « الظل » مرفوعين . فقال واحد من القوم يسأل صاحبه :

– ما السحاب وما الظل اللذان ارتفع باسمهما النداء ؟

– هما اسما اللواءين اللذين تراهما أمامك خافقين فى الهواء .

– وما معنى هذه التسمية ودلالتها على الأشياء ؟

ـ إن السحاب كما يطبق جميع الأرض من أرجائها ، كذلك بنو العباس تطبق دعوتهم الأرض من أقطارها. وكما أن الأرض لا تخلو من الظل ، فكذلك بنو العباس لا تخلو الأرض من قائم منهم . . .

وكان اللواءان يخفقان ، بينما كان هذا الحوار يأخذ بين الصاحبين مجراه . .

نجم يلمع

كان نصر بن سيار هو عامل بنى أمية على خراسان ، وذات يوم كان جالساً فى دار الإمارة ، وهو مشغول البال ، مهموم الفكر بهذه الأحداث التى بدأت تظهر فى جو الدولة الأموية ، وبينما هو على مقعده من الإمارة يستعد للأمور ، ويأخذ الأهبة لما قد يستجد من الأحداث ، إذا بالحاجب يدخل عليه يبلغه أن رسولا بالباب يحمل كتاباً يريد توصيله إليه . فقال له نصر : دعه يدخل ؟

ودخل الرسول وفى يده الكتاب ، وهو ثابت الخطا ، ثابت الجنان ، كأنه ليس بحضرة عامل الخليفة الأموى وواليه على خراسان . فقال نصر :

– من الذى بعثك بهذا الكتاب ؟

– بعثنى به مولاى أبو مسلم الخراسانى ؟

– ومن هو أبو مسلم هذا ؟

– ليس قولك من هذا بضائره ! إنه أمير خراسان من قبل الإمام الرضا من أهل البيت ، وهم أولى الناس بالخلافة ، وأحقهم بالطاعة .

– يظهر أن الخراسانية قد جرأتكم على مقامات الكبراء ! اخرج أيها الجبان ! فلولا أن الله تعالى يقول : « ما على الرسول إلا البلاغ » .

لكان لى معك شأن غير هذا الشأن . . .

وخرج الرسول ، وفض الأمير نصر بن سيار أغلاق الكتاب فإذا فيه :

(من أبى مسلم الخراسانى إلى نصر بن سيار : أما بعد . فإن الله غير أقواماً فى كتابه فقال : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً ، استكباراً فى الأرض ومكر السيئ ، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ») .

فرغ نصر من قراءة الكتاب ، ولم يكن غير آيات من القرآن الكريم فيها إنذار وفيها وعيد . ولكن نصراً لم يعظمه هذا أكثر مما أعظمه أن يقدم أبو مسلم اسمه على اسمه . . وللعرب حساسية فى هذه الأمور التى تحمل دلالاتها الخفية . . فأطال الفكر مرة ومرة فى هذه الرسالة الجريئة وقال :

– هذا كتاب له جواب . . .

لم يسكت نصر بن سيار على هذا الحادث وما سبقه وما أحاط به من أحداث ، وأيقن أن كرامة الدولة الأموية وسلطانها تقتضى محاربة هذا الشر الناجم قبل أن يستشرى . وعلى الفور أرسل أبو مسلم الخراسانى إلى مالك بن الهيثم الخزاعى يستدعيه فحضر لساعته ، ودار بينهما الحوار التالى :

– يا مالك ! لم يعد مفر من سل السيوف وملاقاة الحتوف ، فقد انقضى عهد سرية الدعوة العباسية ، ودخلنا الآن فى مرحلة العمل العلنى .

– أنا معك يا مولاى ، وسيوفنا كلها مستعدة للدفاع عن آل رسول الله.

– إن الموقعة التى أعدك لها تحتاج إلى الفرسان الشجعان ، ممن يركبون الخيل كأنهم ولدوا على صهواتها ، أو كأنها نتجت قياماً تحتهم . . . فخذ معك خيلا عظيمة ، فقد بلغنى أن نصر بن سيار بعث عدداً من الخيول لمحاربتنا .

– هل بعث ابن سيار الخيول لمحاربتنا ؟ إن هذا سيكون أول موقف يقتتل فيه جند بنى العباس وجند بنى أمية ، ونحن على ثقة بأن الله ناصرنا لأننا ندافع عن قضية حق مهضوم ، وبيت مظلوم .

– امض يا مالك على بركة الله ، والله معك . . .

وخرج مالك بن الهيثم من مجلس أبى مسلم الخراسانى ، وأخذ يجمع الفرسان الأشداء من رجاله ، والتقى مع فرسان نصر بن سيار ، فأخذ يدعوهم إلى « الرضا » من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يعين من هو هذا الرضا الذى يدعو إليه . فأبى فرسان نصر بن سيار أن يستجيبوا إلى هذه الدعوة . وهنا لم يكن بد من القتال . فاصطف الفريقان من أول النهار إلى العصر . وقد بدا من هذا الموقف أن القوتين تكادان تكونان متعادلتين ، فبعث مالك بن الهيثم إلى أبى مسلم يطلب منه المدد ، فجاء إلى مالك مدد قوى ، كان له أثر فى ترجيح كفة الجند العباسى ، فظفروا بخصومهم من الأمويين .

• • •

أخذ نجم أبى مسلم الخراسانى يلمع شيئاً فشيئاً . . . .
وأخذ هذا الانتصار الحربى الأول على جند بنى أمية يشد من عزمه ، ويقوى من جنانه ، كما أخذ مركزه يقوى عند الإمام إبراهيم صاحب الدعوة العباسية الذى استدعى إليه أبا مسلم بقرية « الحميمة » ، فوافاه أبو مسلم هناك ، ودخل وسلم عليه تسليم الخلافة ، فأدناه الإمام إبراهيم منه وقال له :

– يا أبا مسلم ! إن انتصارك هو انتصار لنا ، وإنى لأرجو أن يقوى بك أمر هذه الدعوة . وأرجو لك من الصهر ما يشتد به أزرك ، ويقوى به سندك ، فإن الصهر دعامة الرجل وعضادته .

– مولاى الإمام ! إن القول لكما ذكرت ، ولكن أنى لى بالصهر الذى ألتمس فيه الحماية والرعاية ، وأنا رجل لا أملك من دنياى إلا سيفى وعقلى . . وليس عندى من المال ما أغلى به مهر الحسناء !

– لا تأسَ يا أبا مسلم ! فإنى أعرف لك عروساً فيها الجمال ، وفى أبيها الجاه والمنزل . . .

– وهل جاه أبيها يا مولاى الإمام يعفينى من إمهارها ؟

– اطمئن يا أبا مسلم ! فسأقوم أنا عنك بعبء ذلك ، وسأدفع عنك صداقها إلى أبيها . .

– ومن ذلك الصهر الكريم الذى شرفتنى يا مولاى باختياره لى ؟

– هو أبو النجم إسماعيل بن عمران الطائى من كبار دعاتنا . وثق

يا أبا مسلم أنه لن يغلى الصداق عليك ! فخذ هذه الدراهم الأربعمائة ، وقدمها مهراً إلى إسماعيل ، وهو إن شاء الله ستسره خطبتك لابنته . . .

ولم تكن إلا أيام حتى كانت بنت أبى النجم فى كنف أبى مسلم ، زوجة مخلصة وفية ، ليست بعيدة عن أفكار زوجها ، لأنهم جميعاً تجمعهم روابط الوفاء لآل البيت الكريم .

رجع أبو مسلم إلى خراسان على عجل ، لأن الأحداث لم تكن تقتضى غيابه عنها طويلا . فالدعوة الآن جهرة ، والسيوف الآن قد سُلت من الأغماد ، والأحزاب والشيع تقتضى اليقظة التامة .

ولكنه ما كاد يستقر قليلا ، حتى وجد شيئاً لم يكن يتوقعه . . وجد أن بعض أوامره إلى الدعاة فى خراسان لا تلقى ما هى جديرة به من الطاعة والتنفيذ ، فأخذ يدرس ذلك ويتبعه ويتعرف إلى أسبابه ، حتى جاءه عنه يوماً الخبر اليقين . . .

اصطنع أبو مسلم بعض العيون ممن يثق فيهم ويطمئن إليهم ، وكلفهم أن يأتوه بأخبار الدعاة ، وماذا يقولون عنه ، وأمنهم لكى يوافوه بكل كلمة تقال فيه . وفى يوم جاءه أحد هؤلاء العيون ودخل عليه ، فسأله أبو مسلم :

– كيف حال دعوتنا فى خراسان وفى العراق ؟

– إنهم مخلصون فى الدعوة ، ومخلصون للإمام .

– وهل يتفق الإخلاص للدعوة والطاعة للإمام من أهل البيت

مع هذا التقاعس الذى يبدو لى من بعضهم ؟

– إنهم أيها الأمير شيوخ كبار ، ولعل من تجاربهم ما يسوغ موقفهم !

– أفصح أيها الوفى ، فما أرسلتك للألغاز والأحاجى ، ولكنى أرسلتك لتخبرنى بحقيقة الحال !

– لقد كنت أيها الأمير عند واحد منهم حين جاءه كتاب منك ، وكان عنده بعض الدعاة . ولم أجدهم يتسارون فى الحديث ، بل وجدت مصارحة بالسخط ، ومعالنة بالغضب .

– وأى سخط أيها الرسول ، ولا أظننى قلت أو فعلت إلا ما فيه مرضاتهم ؟ وهل الكتابة إليهم فى شأن مما كلفت أنا به من شئون الدعوة تغضبهم ؟

– لقد سمعت واحداً منهم يقول : ألم يعد للسن اعتبار عند الإمام ؟

– وماذا كان تعقيب غيره من الحاضرين ؟

– أعفنى أيها الأمير من أن أنقل إليك ما سمعت !

– قل وأنت آمن . . . فناقل الكفر ليس بكافر ! فإنى أحب أن أسمع منك كل ما قيل !

– لقد خاضوا فى حديث النسب والمصاهرة ! كما خاضوا فى حديث صغر السن ، وكل منهم يرى التقدم فى السن أهلا للتقدم فى المنزلة !

– ومتى كان السن أيها الرسول مانعاً من ارتقاء المناصب ! لا بأس !

لا بأس ، فلابد أن يوضع حد لمثل هذه الأمور !

تأثر أبو مسلم مما سمعه من اعتراض الدعاة عليه للسن مرة ، وللمصاهرة مرة أخرى ، ولأسباب أخرى لا يعدمها الساخطون مرة ثالثة . وأعمل رأيه فى هذا الموقف الذى جد له ، والقتال على الأبواب . فأمسك القلم وكتب إلى الإمام كتاباً مؤثراً وأبان له الخطر على الدعوة من مثل هذه الأمور ، وأوضح له أن عدم الطاعة سيفضى إلى ضعف الدعوة فى خراسان والعراق ، وإلى هزيمة الجند ، فتكون النتيجة وبالا .

وهنا تأثر الإمام من كتاب أبى مسلم ، فاستدعى كاتبه وأملى عليه رسالة إلى الدعاة يؤكد فيها الوصاة بأبى مسلم ، ويوجب عليهم الطاعة له ، واستنسخ من هذه الرسالة نسخاً بعدد الدعاة فى خراسان والعراق وختمها بخاتمه ، وأرسلها إليهم .

وكان كتاب الإمام إلى الدعاة سبباً فى تسكين نفوسهم ، وحملهم على طاعة أبى مسلم ، بل كان سبباً لدعم سلطته ، واشتداد أمره .

شيع مختلفة

كانت خراسان مستقراً للفتن وخاصة منذ أن جاهر دعاة العباسيين بدعوتهم ، وكل فريق من الشيع المختلفة فيها يحاول أن يكسب إليه فريقاً آخر يتقوى به على خصمه . ونصر بن سيار واقف أمام هؤلاء الأعداء الراصدين له لا يدرى ماذا يصنع . وقد حاول أن يكسب لنفسه شيبان وجنوده ليقوى به وبهم على قتال أبى مسلم . . . ولكن أبا مسلم كان أدهى الرجال جميعاً ، فمال إلى ابن الكرمانى ظاهراً ليتخلص به من نصر بن سيار ، فإذا ما تخلص من نصر استطاع بعد ذلك أن يتفرغ لعدويه الآخرين : ابن الكرمانى وشيبان ، وأن يتخلص منهما واحداً بعد آخر ، وبذلك يخلو له الجو .

وصدق ابن الكرمانى كلام أبا مسلم ، وبعث إليه رسولا يقول له :

– إنى معك على قتال نصر بن سيار .

أراد أبو مسلم أن يؤكد لابن الكرمانى صدق نيته فى معاونته ، فركب فى جماعة من جنده ، وقدم نفسه لخدمة الكرمانى ، الذى بلغ من الغفلة حداً جعله يصدقه ويطمئن إليه ، ولم يدر أنه يدبر له أمراً ليأكله . . .

وكانت هذه فرصة يلتقى فيها أبو مسلم الخراسانى مع ابن الكرمانى ،

فاتفقا على قتال عدوهما المشترك : نصر بن سيار ، وتعاهدا على مخالفته والتخلص منه .

وبعد أن تم التحالف بين أبى مسلم وابن الكرمانى ، تحول أبو مسلم الخراسانى بجنوده إلى بقعة فسيحة ، وأرض واسعة من أرض خراسان ، وقد امتلأت بهم الأرض على رحابها ، وكان الناس يتزايدون فى الانضمام إليه ، حتى كان جيشه عظيم العدد ، وافر السلاح ، كثير المئونة . وأخذ الرجل الداهية تنظيم جيشه على أدق وسائل التنظيم . . فجعل عليه الحرس والشرط ، وعين له الدواوين ، وأقام لنفسه ما يحتاج إليه الملك من العمال والأعمال ، وعين القاسم التميمى — أحد النقباء — قاضى القضاة وقال له :

— (يا قاسم ! إن مظاهر الدولة الهيبة ، ومن أمارات الملك العدالة . فاقض بين فيما يعرض لهم من خصومات بأمر الله الذى شرعه ، وبحق الله الذى فرضه . واعلم يا قاسم أن كل دعوة جديدة تحتاج إلى داعية يدعو لها ، ويحبب الناس فيها . وستصلى أنت بنا الصلوات ، فإذا قضيت الصلاة ، فاجلس حيث يجتمع المصلون حولك ، ويتحلقون بك ، وأنت تسمعهم من محاسن أهل البيت ، وفضائل بنى هاشم ما يحببهم فيهم ، ولا تنس أن تذكر من مساوئ بنى أمية ، ما تزيد به موجدة الناس عليهم ، وبغضهم لهم ، ونفورهم منهم) .

وأخذ أبو مسلم يتحول من مكان إلى مكان ، ومن قرية إلى قرية

حتى بلغ بجيوشه قرية صغيرة يقال لها « بالين» ، وكانت فى أرض منخفضة فخشى أن يقطع نصر بن سيار عنها الماء الذى يأتيها من عل ، فتركها إلى حيث يطمئن على سقاية الجند ، وكان فى طريقه إلى حيث يتوقع اللقاء مع جيوش المروانية بقيادة نصر بن سيار.

وكانت الحرب فى ذلك الحين قد نشبت بين نصر بن سيار والى خراسان من قبل الأمويين وبين ابن الكرمانى أحد الخارجين على الدولة الأموية . وأخذ أبو مسلم الخراسانى يترقب الأحداث بحذر شديد ، كما أخذ يقف موقفاً ذا دهاء بين الفريقين المتقاتلين ليكسب من هزيمة أحدهما ، فيتفرغ للقاء المنتصر.

ودارت رحى المعركة بين رجال الكرمانى ، وكان فيهم بأس شديد ، وبين جنود نصر بن سيار . وقتل فى هذه المعركة خلق كثير . وأخذ أبو مسلم — وهو فى معسكره يرقب الحوادث — يكاتب كلا من الفريقين المتحاربين ، ويستميلهم إليه . ثم استدعى إليه كاتب رسائله ، وأملاه الرسالة الآتية :

(من عبد الرحمن أبى مسلم إلى ابن الكرمانى

إن الإمام إبراهيم قد أوصانى بكم خيراً ، ولست أعدو رأيه فيكم) ثم كلف أحد رجاله توصيل هذا الكتاب إلى ابن الكرمانى وهو فى وسط المعركة ، والقتال دائر بينه وبين جنود نصر بن سيار . .

ثم استدعى أبو مسلم جماعة من كتابه ، وأملى عليهم رسائل قوية

فى الدعوة لأهل البيت . ومناصرة العباسيين الذين هم أحق بالخلافة من مغتصبيها الأمويين ، والتخلى عن بنى أمية الذين تؤذن دولتهم بالأفول .

وطوى أبو مسلم أغلاق هذه الرسائل ، وسلمها إلى رسل أمناء من قبله ، ليوصلوها إلى الكور ، والقرى ، والدساكر ، فى أنحاء خراسان . وكانت كل رسالة تحمل إلى الناس نفحات من أهل البيت ، وتدعوهم إلى رجل من بنى العباس عم النبى عليه السلام .

ولم تلاق هذه الدعوات السافرة الآن كبير عناء . فالخراسانى المسلم يقبل فكرة التشيع لأهل البيت بسهولة تامة ، ولا يكاد يعارض فيها أو يعترض عليها ، لأنها تعنى عنده نقل الخلافة إلى بيت النبى عليه السلام ، وهو صاحب الرسالة ، ونبى هذه الأمة ، فالخلافة لابد أن تكون فى أهل بيته وراثة ، كما أن الملك عندهم وراثة ، لا ينقل من بيت صاحبه إلى بيت آخر إلا إذا كان عن طريق الاغتصاب والاختلاس .

لهذا رحب أهل خراسان بالدعوة إلى العباسيين . وكان أبو مسلم يعلم هذا ويعلم أكثر منه . . يعلم أن أهل خراسان عجم خاص ، وأن العرب الأمويين كانوا طارئين عليهم . وتفردوا وحدهم بالسيادة فيهم ، والسلطان عليهم ، مع أنهم من بلاد لها تاريخ قديم وملك قديم . فإذا سنحت فرصة للتخلص من النفوذ العربى فلا بأس من انتهازها على الفور . وقد سنحت لهم الفرصة اليوم .

وجلس اثنان من أهل إحدى الكور بإقليم خراسان يتحدثان فيما

صارت إليه البلاد الآن . فالكرمانى يقاتل جيوش الوالى الأموى نصر ابن سيار ، وأبو مسلم الخراسانى واقف بين المعسكرين يترصد . فقال أحد الرجلين لصاحبه :

– ما رأيك فى هذه الدعوة الجديدة إلى إمام من أهل البيت ؟

– إنها دعوة حق ، فأهل البيت قد ظلموا وغلبوا على أمرهم ، منذ أن جاءت هذه الأموية ، ولقد حانت الساعة لإنصافهم واسترداد حقهم .

– ولكن ألم يجد الداعون إلا خراسان يجعلونها مسرحاً للفتن ؟ وما ذنبنا نحن وكل يوم جديد يطالعنا بقتال جديد ؟

– أجبناً ونحن لما نزل فى بداية الطريق ؟ ؟ أكنت تنتظر أن تقوم الدعوة العباسية فى بلاد الشام حيث أنصار الأمويين وحيث مقر خلافتهم ؟

– وما رأيك فى أبى مسلم ؟

– إنه الرجل الملائم للقيام بهذه الدعوة . وأنا على ثقة بأنه سيضرب أعداءه بعضهم ببعض ، وينتصر عليهم جميعاً فى نهاية الأمر .

– ولكنى يا أخى لا أفهم لماذا يساعد أبو مسلم الخراسانى ابن الكرمانى ، مع أننى عرفت أن ابن الكرمانى يضمر له الشر ؟

– إنها الحرب يا أبله ؟ وإنها المكيدة والخداع . وأبو مسلم يعلم هذا من خصومه جميعاً ، ويعلم أنهم يتربصون به ، ولكنه يأكلهم واحداً واحداً مخافة أن يجتمع اثنان منهم عليه ، فيضعفا من خطته .

الأمير الهارب

أقبل أبو مسلم الخراسانى فى جنده ، فنزل بين خندق نصر بن سيار ، وخندق ابن الكرمانى . وكان موقفه هذا سبباً لإلقاء الرعب بين الفريقين . فابن سيار خائف منه بعد أن ظهر من مجاهرته بالدعوة العباسية ، وابن الكرمانى غير مطمئن إليه ، ويود لو عرف ما يدور فى نفسه من خطط ، وما يبيته من تدبير . . .

والحق أن موقف نصر بن سيار كان يدعو إلى الرثاء والإشفاق ، فهو أمام قوى ثلاث ، لا يدرى كيف يواجهها ، على أن قوة أبى مسلم كانت أشد هذه القوى عليه وأكثرها دهاء .

دهش نصر بن سيار والى بنى أمية وقائد جيوشهم فى قتال العباسيين من منظر لم يكن يتوقعه ، ومن مشهد لم يكن ينتظره . نعم ! دهش من كثرة جنود أبى مسلم الخراسانى ، ومن تدفق الرجال حوله ، ينضمون إليه ، ويدخلون فى صفوفه . فأمسك القلم . وكتب إلى الخليفة الأموى مروان ابن محمد كتاباً جاء فيه الأبيات التالية :

أرى بين الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعيدان تذكى وإن الحرب مبدؤها الكلام

أقول من التعجب : ليت شعرى   أأيقاظ أميةُ أم نيام ؟
فإن كانوا لحينهم نياماً   فقل : قوموا فقد حان القيام !

وكأن هول المنظر قد استثار شاعرية الوالى نصر بن سيار ، وهو عربى بليغ فصيح ، تهزه المواقف وتنطقه بالقول . فأمسك القلم وكتب رسالة ثانية إلى يزيد بن عمر بن هبيرة نائب العراق من قبل بنى أمية ، يستنجد به على العدو الجديد العنيد ، ويطلب منه المدد والمعونة . وجاء فى كتابه شعر يقول فيه :

أبلغ يزيد وخير القول أصدقه   وقد تحققت أن لا خير فى الكذب
بأن أرض خراسان رأيت بها   بيضا إذا أفرخت حدثت بالعجب
فراخ عامين إلا أنها كبرت   ولم يطرن ، وقد سربلن بالزغب
فإن يطرن ولم يحتل لهن بها   يلهبن نيران حرب أيما لهب ..

نعم ! صدقت يا نصر فى شعرك فإن هذه الفراخ العباسية الناشئة التى لا تزال نابتة الريش ، ناشئة الجناح ، ستطير وتنهض وتقوى أجنحتها إذا لم تدركها جيوش بنى أمية !

أخذ دهاة الرجال فى المعركة يتربصون الفرص لإيقاع بعضهم ببعض .. فأبو مسلم الخراسانى يوقع بين ابن الكرمانى وبين نصر بن سيار الأموى ، وهو فى الوقت نفسه يستميل الكرمانى إليه ليوادعه حتى يخلص من ابن سيار . . ونصر بن سيار لا تفوته الحيلة ، فيكتب إلى الكرمانى ناصحاً ومحذراً إياه من أبى مسلم الخراسانى ، ويقول له فيما يقول :

– ويحك يا ابن الكرمانى ! لا تغتر بأبى مسلم ! فإنه إنما يريد قتلك وقتل أصحابك . . فهلم إلى ، وتعال نكتب كتاباً بينى وبينك بالموادعة ! وانطلت حيلة نصر بن سيار على ابن الكرمانى ، فدخل داره ، ثم خرج إلى الرحبة ومعه بعض رجاله الفرسان من بطانته ليكتب عهد الأمان والموادعة مع ابن سيار ، وبعث إليه من رجاله من يقول له :

هلم يا نصر لنتكاتب .

وهنا كانت الفرصة سانحة لنصر بن سيار حتى ينفذ ما عزم عليه من مخادعة ابن الكرمانى ، وأصاب منه غرة ، فنهض إليه فى خلق كثير ، ليحاربه لا ليوادعه . . . وحمل رجال نصر على ابن الكرمانى وفرسانه حملة شديدة ، لم يكن مستعداً لها لأنه لم يكن يتوقع الغدر من صاحبه . وتقدم رجل من رجال نصر ، وقد أخذته حماسة شديدة ، فطعن ابن الكرمانى فى خاصرته طعنة كانت القاضية عليه ، فخر المخدوع عن دابته ، ولم يكتف نصر بهذا المصير للكرمانى ، فأمر بصلبه ، وصلب معه جماعة من رجاله .

وكانت هذه الفعلة الشنعاء التى فعلها نصر بن سيار والى الأمويين بابن الكرمانى سبباً فى استفزاز نفر من أهل خراسان ، وفيهم أتباع ابن الكرمانى ، فقد استبانوا جميعاً غدر الوالى الأموى ، وانضافوا بجمعهم إلى أبى مسلم الخراسانى ، يناصرونه على جيوش بنى أمية . وهكذا ضمن أبو مسلم بعض المكاسب فى حربه مع الأمويين .

وفى يوم من أيام جمادى الأولى سنة ١٣٠ هـ كان أبو مسلم الخراسانى يتقدم بجيشه الزاحف المنتصر نحو مدينة مرو – وهى عاصمة خراسان – وكانت خطته من وراء ذلك الزحف على قصبة البلاد أن يصل إلى مركز الحكم الأموى فيها فيعطله ، ويشل أدواته . وفعلا توجه برجاله المنتشين بخمر النصر إلى دار الإمارة فى مرو . حيث يجلس نصر بن سيار على كرسى الحكم فى ولاية خراسان. واستطاع أبو مسلم أن ينتزع دار الإمارة الأموية من يد نصر بن سيار . وكان للفتى على – ابن الكرمانى المخدوع المصلوب – أثر فى هذا النصر الحاسم السريع .

والآن ننظر إلى ما جرى لنصر بن سيار حين ضيق أبو مسلم الخراسانى عليه الخناق فى عاصمة ولايته . إلا أننا يجب أن نقول إن أبا مسلم كان على غاية الحذر والحرص كعادته دائماً . فلم يطمئن كل الاطمئنان إلى الفتى على بن الكرمانى – ولو أن هذا انحاز إليه برجاله بعد مصرع أبيه – وخشى أن ينحاز « على ابن الكرمانى » إلى نصر بن سيار فى أثناء حصار مرو لمحاربته معاً ما دامت كفته هى الراجحة . وأرسل إلى على بن الكرمانى ليدخل مدينة مرو قبله لمحاربة نصر داخل عاصمته . وكان قصد أبى مسلم الخراسانى من ذلك أيضاً أن يسخر جنود الكرمانى فى المعركة حتى لا تبقى لهم قوة . وبذلك يستطيع هو فى النهاية أن يدخل مدينة مرو بعد أن تكون قد ضعفت قوة الفريقين . .

وفعلا دخلت جيوش أبو مسلم مدينة مرو ورجال نصر بن سيار

وعلى ابن الكرمانى يقتتلان قتالا عنيفاً . وكان حوله جماعة من رجاله منهم أسيد بن عبد الله الخزاعى ، ومالك بن الهيثم ، والقاسم بن مجاشع التميمى . فيمم وجهه شطر قصر الإمارة ، وهو يتلو قوله تعالى : « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان ، هذا من شيعته وهذا من عدوه . . . » .

وهنا كف الفريقان المتقاتلان عن الحرب : فريق الأمويين وعلى رأسه نصر بن سيار ، وفريق الكرمانى ، وعلى رأسه ولده على . وسلمت مرو لأبى مسلم الخراسانى وصفت له الأمور فيها من غير حرب من جانب رجاله .

وأرسل أبو مسلم الخراسانى رجلا من أتباعه اسمه « لاهز » ومعه جماعة من أنصار الدعوة العباسية إلى نصر بن سيار وهو مضيق عليه فى الحصار . يدعوه إلى كتاب الله عز وجل ، وإلى الرضا من آل محمد . فلما رأى نصر كثرة ما وفد عليه من الجماعة ، وأنه لا قبل له بهم ، ولا طاقة له عليهم أخذ يماطل ويسوف فى الجواب ، استعداداً منه للهرب والنجاة . حتى دخل المساء ، وأصبح الطريق غير متبين ولا واضح ، فأمر أصحابه أن يخرجوا من مدينة مرو ليلا ، متخذين الليل ستاراً ، إلى مكان يأمنون فيه ، ولكنهم أرجأوا ذلك إلى الليلة القابلة . فلما كان الغد عبأ أبو مسلم الخراسانى أصحابه وكتائبه إلى بعد الظهر ، وأعاد رسوله « لاهزا » مرة ثانية ومعه جماعة ، ليعرضوا الدعوة على نصر ، وليأخذوا

منه البيعة للإمام الرضى ، وإلا حلت لهم محاربته . ودخل لاهز على نصر ، فلما رأى إصرارهم على ذلك رجاهم أن يمهلوه قليلا حتى يتوضأ ويخرج إليهم ، ثم رجاهم أن ينتظروا حتى يبعث برسوله إلى أبى مسلم الخراسانى ليتلقى منه ما عرضوه عليه . ودخل نصر بن سيار الجناح الخاص بمسكنه من قصر الإمارة على أنه ينتظر عودة رسوله من عند أبى مسلم.

والحق أن ابن سيار كان يدبر كل هذا حتى يهرب من مرو ويسلم من الوقوع فى قبضة أبى مسلم . فلما جنه الليل خرج متسللا من حجرة خلفية ، ومعه ابنه ، ومستشاره الحكم ، وامرأته « المرزبانة » ، وأمعنوا فى الهرب ، وقد أعانهم الظلام الحالك الذى كان يلف مدينة مرو فى تلك الليلة على نجاح خطتهم .

وكان « لاهز » رسول أبى مسلم ينتظر هو وجماعته عودة نصر إليهم كما وعدهم ! ويظهر أنهم كانوا يحسنون الظنون به ، وكانوا يظنون أن تمثيلية رسوله إلى أبى مسلم وانتظاره الرد منه حقيقة لا مرية فيها . . فلما استبطأوا عودته من جناحه الخاص إليهم ، دخلوا عليه منزله ، فلم يسمعوا له حساً ولا ركزاً ، ووجدوا أنه قد اتخذ سبيله فى الليل هرباً .

وعاد « لاهز » إلى أبى مسلم الخراسانى يحمل إليه نبأ الوالى الأموى الهارب ، فعجب من قائد يترك معسكره ورجاله فى الميدان ، ويولى الأدبار . وسار فى جنده إلى معسكر نصر بن سيار ، وأخذ كبار رجاله ، وثقات أصحابه ، وأعظم صناديده ، فشدهم جميعاً فى وثاق ، وساقهم

موثقين فى الحديد ، وحبسهم فى محبس عنده حتى يأمن غدراتهم . وكان فيهم سالم بن أحوز صاحب شرطته ، والبختري صاحب ديوان رسائله ،

ولم يسكت أبو مسلم بالطبع عن طلب نصر بن سيار ، وعز عليه أن يفلت من يديه بعد أن كان منه على أطراف الأصابع ، وكيف يفلت منه وهو بأرض خراسان التى تكاد تدين بالحب والطاعة للدعوة الجديدة ؟ فسار وسار معه على بن الكرمانى يطلبان نصراً الهارب تحت ستار الليل . ولشد ما كانت دهشة أبى مسلم حين وجد المرزبانة — امرأة نصر — وقد خلفها زوجها الهارب وراءه فى مدينة سرخس ، ومضى هو بدونها ممعناً فى الهرب . وهنا اكتفى أبو مسلم بما كان فيه من أمر البحث عن نصر وعاد ثانية إلى مرو . . .

رجع أبو مسلم الخراسانى إلى خيامه ومعسكر رجاله فى عاصمة خراسان وهو لا يدرى سبباً لهروب نصر بن سيار بعد أن وعد بالقدوم عليه وقبوله الدعوة إلى الرضا من آل محمد . وأخذ أبو مسلم يتساءل ويسأل رسله الذين أرسلهم إلى نصر فى قصر الإمارة :

— ما الذى ارتاب به نصر حتى هرب؟

فقالوا جميعاً :

— لا ندرى لذلك سبباً ، بعد أن أعطانا العهود .

فقال لهم أبو مسلم :

— هل تكلم أحد منكم بشىء أمامه ؟

فأجابوا :

– نعم تلا « لاهز » أمامه قوله تعالى : (إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فاخرج إنى لك من الناصحين) .

فقال أبو مسلم :

– هذا الذى دعاه إلى الهرب . . ثم أمر بأن يقتل « لاهز » . ولا يفزعنا هنا مقتل لاهز مع أنه كان من رجال أبى مسلم ، فإن الرجل كان لا يتهاون فى سبيل قيام الدعوة بأمر من الأمور ، وقد نزع الرحمة عنه ، حتى لا تفسد العواطف عليه ما هو بسبيله من أمر خطير . ومما يؤكد لنا ذلك ما فعله مع أصحاب نصر بن سيار الذين أوثقهم وكتفهم فى الحبس ليلة هربه . فلقد كان ينوى قتلهم ، ولكنه أراد ألا يحمل وحده تبعة ذلك العمل الجسيم ، فاستشار « أبا طلحة » أحد دعاة العباسيين فى أمرهم فقال له « أبو طلحة » :

– اجعل سوطك السيف ، وسجنك القبر !

وما أسرع ما استند أبو مسلم إلى هذه المشورة ! فقتلهم وكان عددهم أربعة وعشرين رجلا .

وكانت هذه الحوادث كافية لتقوية أمر أبى مسلم ، ولإعزاز جانبه واستفحال أمره . فهابه الناس ، ودان له الجند بالطاعة والتفت عليه العساكر .

تصدع جديد

كان أبو مسلم يرجو أن يصفو له أمر نصر بن سيار ، وأن يقع فى يده فيتخلص منه ومن مشاغباته التى سيثيرها عليه من مهربه فيما وراء حدود « سرخس » . ولكن شاءت الظروف أن يهرب نصر أو أن يظل بعض الحين شوكة فى جنب أبو مسلم الداهية . ولو أن الأمر أمر نصر وحده لهان ، ولكن هناك « شيبان » الحرورى العدو القديم لأبى مسلم ، والذى مالأ ابن سيار عليه . وهناك أيضاً « على » و « عثمان » ابنا الكرمانى ، اللذان يود أبو مسلم أن يتخلص منهما حتى يخلو له الأمر .

وأخذ أبو مسلم يدبر الأمر للخلاص من أعدائه حتى يكون له وحده الأمر . فاتفق مع أحد رجاله المسمى « أبى داود » على قتل عثمان الكرمانى ، على أن يقتل أبو مسلم نفسه علياً الكرمانى فى اليوم نفسه . وتم ذلك على ما أراده أبو مسلم .

أما أمر شيبان الحرورى وأمر الخلاص منه فقد وكله أبو مسلم إلى « بسام » مولى بنى ليث . وركب بسام إلى شيبان يقاتله . والتقيا فتقاتلا ، ولم يستطع شيبان أن يثبت أمام بسام الذى حمل عليه حملة صادقة فقتله ، وأخذ يتتبع أصحابه حتى شبع فيهم قتلا وأسراً .

بقى نصر بن سيار . . ولن يهدأ لأبى مسلم جنب أو تغمض له عين حتى يقاتله ويقتله .

وعلم أبو مسلم بأن نصر بن سيار جمع جنوده فى نيسابور ، وأن أتباعه من رجال بنى أمية مصممون على القتال . فاختار له قائداً من أشجع قواده اسمه « قحطبة بن شبيب » ، وأرسله لقتاله ، وأرسل معه جماعة من كبار الأمراء ، منهم خالد بن مالك – وهو جد أسرة البرامكة التى لعبت دوراً كبيراً فى الدولة العباسية – ولكنهم بدلا من أن يلاقوا نصراً نفسه لاقوا ابنه « تميما » ، وكان أبوه قد وجهه إلى لقائهم فى مدينة طوس . وكانت المعركة حامية جداً ، وقد شبع قحطبة ورجاله فى أصحاب نصر قتلا ، حتى بلغ عدد القتلى من جند تميم بن نصر بن سيار سبعة عشر ألفاً فى المعركة .

والحق أن جيش قحطبة الأول لم يكن كافى العدد للقاء جند تميم وأصحاب نصر ، فبعث قحطبة إلى أبى مسلم يطلب منه المدد لإنهاء المعركة. فأمده أبو مسلم بنحو عشرة آلاف فارس من خيرة الرجال المدربين على الحرب ، المؤمنين بالدعوة . فاقتتلوا قتالا عنيفاً ، وقتلوا من جنود الأمويين خلقاً كثيراً . ولم يسلم تميم نفسه فى المعركة فأصابته طعنة قاتلة . وغنم رجال أبى مسلم الخراسانى وعلى رأسهم قحطبة أموالا جزيلة جداً من جيش بنى أمية . ورأى جنود الأمويين هزيمتهم المنكرة أمام جيوش أبى مسلم ، فبعثوا إلى زيد بن عمر بن هبيرة والى الخليفة مروان

الأموى على العراق ، يطلبون منه المدد ، فأمدهم ببعض السرايا . وهنا كان قحطبة نفسه فى المعركة يدير رحاها ، ويوجه حركاتها ، فحمل على جند بنى أمية حملة شديدة انهزموا فيها شر هزيمة ، وقتل من أهل الشام – وهم أتباع مروان من الأمويين – عشرة آلاف نسمة ، منهم « نباتة بن حنظلة » عامل بنى أمية على جرجان ، الذى بعث قحطبة برأسه إلى أبى مسلم . . .

انتهى عام سنة ١٣٠ ﻫ بما حمله من الأحداث والوقائع التى ذكرناها قبلا . واستهل عام ١٣١ ﻫ وأبو مسلم الخراسانى يوطن عزمه على الخلاص نهائيًّا من الأمويين . وكان نصر بن سيار عاملهم على خراسان ، لا يزال يجمع جيوشه هنا وهناك ليناوش بهم جنود الدعوة الجديدة . وظل نصر ينتقل من بلد إلى بلد ليشعل الفتنة ضد رجال أبى مسلم الخراسانى الذى أخذ نفوذه يزداد ، ومركزه يتقوى فى بلاد خراسان كلها . ولم يسكت أبو مسلم عن ملاحقة نصر بن سيار فى أى مكان يكون فيه . فبعث إلى قحطبة بذلك . وفى شهر المحرم من العام الجديد وجه قحطبة ولده « الحسن » إلى مدينة « قوميس » لقتال نصر الذى اعتصم هناك . وكان يتابعه بالأمداد من وقت إلى وقت . واستطاع نصر ببلاغته المأثورة عنه ، وشدة تأثيره فى الكلام ، وصدق وفائه لبنى أمية ولقضيتهم التى كان يعدها قضية العرب ضد العجم – استطاع أن يكسب بعض الأنصار ويضمهم إلى صفه . ولكنه بمن انحاز إليه كان

أضعف من أن يكون راجح الكفة أمام جنود العباسيين . فارتحل من مدينة قومیس إلى مدينة الرى ، واعتصم بها يومين . ولكن المرض أدركه ، وكانت قواه قد انحلت ، وأثر فى جسمه طول الصراع ، فسار منها إلى همذان ولما بلغ مدينة « ساوة » كان الضعف والإنهاك قد بلغا منه ، فوافته المنية لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول . . وكانت سنه خمساً وثمانين.

وقد أراح الله بموت نصر بن سيار بال أبى مسلم الخراسانى وبال رجال الدعوة وقوادها ، وخاصة قحطبة . فتخلصوا – بالموت الطبيعى – من شيخ أفنى عمره مدافعاً عن دولته . وهكذا حل المرض والموت قضية لم تحلها السيوف الصوارم . . .

وبموت نصر بن سيار العدو الأول للدعوة الجديدة تمكن أبو مسلم الخراسانى وأصحابه ، من بلاد خراسان ، وقويت شوكتهم ، حيث انزاح من طريقهم أكبر عائق كان يعطل تقدمهم ، ويهدد سلامتهم .

وإذا كانت خراسان قد خلصت كلها تقريباً لأبى مسلم ورجاله ، وارتفعت رايات الإمام إبراهيم بن محمد العباسى فى كل شبر من أرضها فإن العراق قد بقى مصدر خطر على الدعوة الجديدة ، فإن « ابن هبيرة » واليه ونائبه من قبل الأمويين كان لا يزال بجيوشه فى العراق يأمل أن يلاقى جنود الدعوة الجديدة فى معركة تقرر المصير بينه وبينهم .

وقد تولى قحطبة بنفسه لقاء يزيد بن عمر بن هبيرة فى العراق ، وقصده فى جيش كثيف كثير العدد والعدة ، فلما اقترب منه تقهقر ابن

هبيرة إلى الخلف ، وقحطبة يتقدم إليه ، وما زال ابن هبيرة يتقهقر حتى جاوز الفرات ، وقحطبة يتتبعه حتى جاوز النهر وراءه . وهنا كانت سنة ١٣١ هـ وقد انتهت بما رأيناه من أحداثها فى الصفحات السابقة ، ودخلت سنة ١٣٢ هـ ، فلننظر ما كان يخبئه فيها القدر للفريقين المتحاربين.

لما اجتاز قحطبة نهر الفرات متعقباً خطوات ابن هبيرة فى تقهقره كان صاحبنا هذا قد حط رحال جنده وعسكر بهم فى مخيم على فم الفرات مما يلى مدينة « الفلوجة » . وكان معه خلق كثير ، وجم غفير وهنا فى هذه البقعة التى اختارها مخيما لعسكره كانت الأمداد التى بعث بها إليه الخليفة مروان الأموى قد وصلت إليه ، فازداد بهم عدداً وعدة ، واستطاع أن يجمع إليه فلول المنهزمين من رجال بنى أمية . ولم يكن قحطبة يتوقع أن يرى ابن هبيرة فى مثل هذه الجموع الكثيرة ، فعدل عن ملاقاته ، واتجه إلى مدينة الكوفة ليأخذها ، فترجح بهذا كفته على كفة خصمه . ولكن ابن هبيرة طارد جيش قحطبة واتبعه ليلقاه لقاء فاصلا وكان قد مضى من شهر المحرم من العام الجديد ثمانية أيام . فالتقى الفريقان ، واقتتلوا قتالا شديداً ، وأعمل كل فريق سيوفه وحرابه فى رقاب الفريق الآخر ، وفى مواقع الطعن والضرب من أجسامهم ، حتى كثر القتل بين الفريقين .

ولقد صدق جند الأمويين فى المعركة ، وصبروا على القتال ، ولكنهم لم يستطيعوا الثبات أمام عدو قوى الشكيمة ، متحمس الروح ،

شديد الإيمان بدعوته والدفاع عن فكرته . فولوا منهزمين ، واتبعهم رجال قحطبة ، وكان أغلبهم من أهل خراسان أنصار الدعوة الجديدة .

واستحر القتل بين الفريقين ، حتى أخذ رجال قحطبة يبحثون عنه فلم يجدوه ، وكأن أرض المعركة قد ابتلعته . وإذا برجل ينادى من صفوف الخراسانين :

– يا معشر الرجال ! صبراً إذا كان القضاء قد نزل بقائدكم قحطبة ! إنه قد قتل ، وقد سمعته بأذنى هذه يوصى بإمارة الناس من بعده لابنه الحسن !

وانطلق رسل فى زحام المعركة ، وبين الصفوف التى كان الموت يجول بينها ليبحثوا عن الحسن بن قحطبة ، ليعقدوا له بالإمارة مكان والده المفقود ، فلم يجدوه حاضراً ، فبايعوا أخاه حميد بن قحطبة . وبعثوا بالبريد إلى الحسن بن قحطبة ليحضر ، ليتسلم مكان القيادة من أخيه ، عملا بوصية أبيه .

ولم يكن غير يومين حتى جاء يوم عاشوراء ، وهو العاشر من شهر المحرم ، وإذا بالحسن بن قحطبة – بعد وصول البريد إليه – يسير نحو الكوفة ليرى ماذا يكون من أمرها ، وليطمئن على مصيرها ، فوجد أحد دعاة العباسيين – وهو الأمير محمد بن خالد بن عبد الله القسرى – سبقه إليها ودخلها فى جماعة من رجاله ، ودعا فيها إلى بنى العباس ، ولبس السواد شعار الدولة العباسية الجديدة ، فتبعه أهلها ، وخلعوا

طاعتهم من عاملها : زياد بن صالح الحارثى نائب ابن هبيرة . ودخل ابن خالد القسرى قصر الإمارة فى الكوفة ، قبل أن يدخلها الحسن ابن قحطبة .

لم يسكت ابن هبيرة على هذا الصدع الجديد فى جسم الخلافة الأموية ، وقد أزعجه سقوط الكوفة فى يد محمد بن خالد القسرى تابع العباسيين ، فكلف « حوثرة » أن يذهب إلى الكوفة ليستنقذها من أيدى رجال الدعوة العباسية . وبعث معه جيشاً عدته عشرون ألف مقاتل . فلما اقترب رجال حوثرة من الكوفة أخذوا ينفضون عنه ! وينضمون إلى الأمير محمد بن خالد القسرى ليبايعوه لبنى العباس ! فلما رأى حوثرة ذلك من صنع أصحابه ارتحل بمن بقى من رجاله نحو مدينة « واسط » .

أبو العباس السفاح

كان الخليفة مروان الأموى مقيماً فى ذلك الحين بمدينة « حران » ، يتتبع سير الأحداث ، ويتلقى الأنباء التى كانت تأتيه بالبريد على ظهور الجياد وأصائل النجب ، حاملة له من أخبار المعارك الدائرة فى خراسان والكوفة والعراق ما ينذر بقرب مصير الدولة الأموية . وكان مروان على عرش خلافة بنى أمية قلق الوساد ، مضطرب المهاد ، وهناك فى « البلقاء » قرب مدينة دمشق عرش جديد آخر يجلس عليه إبراهيم ابن محمد الإمام العباسى الذى كان الأنصار والدعاة يدعون له فى خراسان أولا ، وفى غير خراسان بعد ذلك . . .

ولما جاهر العباسيون بالدعوة ، وصرحوا باسم الإمام الذى يدعون إليه — وهو إبراهيم بن محمد — كتب مروان الأموى إلى نائبه فى دمشق أن يحضر له هذا المنافس على الخلافة . ولم يتوان نائب دمشق فى تنفيذ أمر مروان ، فبعث البريد فى كل مكان ومعه صفة الإمام إبراهيم العباسى ونعته . فذهب الرسول فوجد أول الأمر رجلا يشبهه كأنه هو . فإذا به أخوه أبو العباس السفاح — الذى صارت إليه الخلافة العباسية بعد ذلك — فاعتقد الرسول أنه هو إبراهيم الإمام ، فأخذه ، فقيل له

إنه ليس هو ، وإنما هو أخوه . فلما استوثق من ذلك خلى سبيله ، وأخذ فى البحث عن الإمام إبراهيم من جديد . وأوقعته الحظوظ السود فى يد الرسول ، فقبض عليه وعلى جارية له كان يحبها حبًّا شديداً . فلما رأى الإمام ذلك توقع السوء من الخليفة الأموى مروان ، فودع أهل بيته ، وأوصاهم أن يكون أخوه أبو العباس السفاح خليفة العباسيين من بعده . وأمرهم بالرحيل عن هذا المكان ، حتى لا يتعرضوا من بعد للسوء والقبض والمصادرة من يد مروان . وأوصاهم أن يتجهوا إلى الكوفة ، حتى يكونوا هناك بمأمن من الأمويين .

وسار أعمام الإمام إبراهيم وأخواه أبو العباس السفاح ومحمد ، وابناه محمد وعبد الوهاب ومعهم خلق غير يسير من أهل بيتهم وأنصارهم إلى الكوفة ، وكانت فى ذلك الوقت لا تزال فى أيدى بنى أمية ، ونزلوا فى دار أبى سلمة الخلال الذى صار فيما بعد وزيراً للسفاح ، ثم ظلوا يرتحلون سرًّا من مكان إلى آخر خشية أن تعرفهم العيون ، أو تأخذهم الظنون ، إلى أن فتحت البلاد . وقتل إبراهيم الإمام كما سيجىء ، وبويع لأخيه أبى العباس السفاح ، فظهروا على حقيقتهم ، وخرجوا من مكانهم .

والآن أقص عليك كيف قتل إبراهيم الإمام بعد أن وقع فى يد رسول مروان ، وكيف صارت الخلافة العباسية إلى أخيه أبى العباس السفاح . .

* * *

لما وقع الإمام إبراهيم بن محمد فى يد رسول الخليفة الأموى مروان ، أخذه هذا مخفوراً موثقاً فى الأغلال إلى مروان وهو بمدينة حران . فلما وقع نظر هذا عليه أخذ يعنفه على تلك الحركة التى قام بها ، ولكنه لم يجرؤ على قتله وهو فى أشد حالات الغضب عليه ، حتى لا يثير بذلك عليه سخط أهل البيت النبوى الكريم ، ولهم فى النفوس محبة قائمة ، ومودة دائمة . فاكتفى بأن يأمر بحبسه ، وهو يدبر فى نفسه أمراً ، ويرسم خطة للخلاص منه . . .

ولم تكن هناك فى نظر مروان خطة أسهل من أن يجعل موتته غير مقصودة ، حتى لا يتهم بأنه هو قاتله . فأسكنه فى محبس يقال إنه أقام قواعده على كتل من الملح . وهو يرمى من وراء ذلك إلى أمر . . .

وفى ليلة معهودة عهد إلى رجاله بأن يسلطوا الماء على أساس البيت الذى حبسه فيه ، فلما تمكن الماء من حوالى القواعد ، ذاب الملح فانهارت جدران المحبس وسقوفه ، ووقع الإمام إبراهيم قتيلا تحت الأنقاض ! وأذاع مروان أن بيت الإمام قد انهار ، وأن وفاة الإمام كانت نتيجة لحادث طبيعى لا يد للأمويين فيه . .

وهذه إحدى الموتات التى يقال إن إبراهيم الإمام لقيها على يد الخليفة مروان الأموى . وقد قيل أيضاً إن مروان أمر بأن يسقى الإمام لبناً مسموماً ، فلم يكد يتناوله حتى كان السم سرى فى جسده فمات .

كما قيل إنه قتله قتلا صريحاً لم يلجأ فيه إلى جدار مهدوم ، ولا إلى لبن مسموم . . .

* * *

بعد مقتل الإمام إبراهيم بن محمد العباسى بويع أخوه أبو العباس بالخلافة ، كما عهد له بها الإمام . وقد حاول جماعة من الدعاة أو المتظاهرين بالدعوة العباسية أن يحولوا الخلافة من البيت العباسى إلى أبناء على بن أبى طالب ، وهم أبناء عم العباسيين . وكان يتزعم هذا الفريق « أبو سلمة الخلال » الذى غلبه بقية النقباء والأمراء العباسيين ، الذين أحضروا أبا العباس السفاح بمدينة الكوفة وسلموا عليه بالخلافة فى شهر ربيع الآخر سنة ١٣٢ هـ . وكان أبو سلمة الخلال أول من سلم عليه ، بعد أن غلبه النقباء على أمره .

والآن نبحث عن أبى مسلم الخراسانى بين الوافدين والمهنئين فلا نجده. إنه مشغول فى خراسان بإتمام إخضاعها ، وأخذ الطاعة منها جميعاً للعباسيين ، حتى تعلن مبايعة أبى العباس عن بكرة أبيها ، لا يشذ منها شاذ ، ولا يتخلف منها متخلف .

واكتفى أبو مسلم بأن يبعث من عنده رسولا إلى أبى العباس يهنئه بالخلافة ، ويبايعه بالطاعة . وجاء الرسول . وكان لا يعرف هيئة أبى العباس ولا صفته – فدخل بيت الإمام ، فوجد رجلين تبدو على وجه كل منهما سمات النبوة ، وملامح أهل البيت الكريم ، وحولهما

الأكابر من وجوه القوم وأعيانهم وسراة الكوفة . فابتدرهما بالسؤال قائلا :

– أيكما ابن الحارثية ؟

ولم يكن الرجلان غير الإمام أبى العباس السفاح الخليفة العباسى الجديد ، وغير أخيه لأبيه أبى جعفر المنصور . .

ولم يكن ابن الحارثية إلا الخليفة السفاح نفسه ، والحارثية أمه عربية صميمة النسب . أما أخوه أبو جعفر المنصور فأمه جارية اسمها « سلامة » . ولقد كان المنصور أكبر سناً وأحق بالخلافة من أخيه السفاح ، ولكن الإمام المقتول إبراهيم أوصى من بعده لأخيه الأصغر لأن أمه عربية الأنساب .

وكان هذا التفضيل والإيثار بالخلافة من الأسباب التى حزت فى نفس أبى جعفر المنصور .

فلما دخل رسول أبى مسلم الخراسانى ، يسأل عن ابن الحارثية ليبايعه ، أحس أبو جعفر بما فى ذلك من تصغير مقصود لشأنه من أبى مسلم ، وأسرها أبو جعفر فى نفسه ، وعدها من سيئات أبى مسلم . فكان ذلك أول ما بين الرجلين من أسباب الخصومات .

وأخذت الحوادث بعد ذلك تتوالى ، وأسباب الخلاف تتسع بين أبى مسلم وأبى جعفر . ولكن أبا جعفر المنصور ليس هو الآن بالخليفة وليس فى يده من أسباب القوة والتنفيذ ما يشفى به غيظ نفسه من أبى مسلم ، فلينتظر حتى تواتيه فيه الفرصة ، وتمكنه الظروف .

وكلما مرت الأيام زاد مرورها من تقوية أسباب الكراهة بين الرجلين وأبو مسلم رجل عنيد ، وهو معتد بمكانته من الخليفة أبى العباس السفاح ، ومعتد بشخصيته وقوته ومنعته فى بلاد خراسان إلى أبعد الحدود .

وإلى ذلك الحين لم يكن أبو مسلم قد وفد بعد ليبايع السفاح بالخلافة مكتفياً بالرسول الذى أشرنا إليه . فأراد السفاح أن يستوثق من ولاء أبى مسلم وطاعته ، ويختبر مدى قوته ، فأرسل إليه أخاه أبا جعفر ليأخذ منه البيعة ، فلا يجشمه مشقة الحضور من جبال خراسان ، وليعرف فى الحقيقة أحواله ، ويستطلع أسراره . وكان مما حمل السفاح على هذا هو تشككه فى إخلاص بعض الدعاة ، وخاصة بعد ما ظهر من محاولة أبى سلمة الخلال نقل الخلافة من العباسيين إلى الطالبيين .

وترك أبو جعفر الكوفة ، وأخذ يجتاز العراق ، ويخترق الحدود ، ويعبر السهول والحزون ، ويطوى الأرض بأوديتها وجبالها ، حتى بلغ أرض خراسان ، ووصل إلى مكان أبى مسلم ، ورأى بعينيه كيف دانت له خراسان كلها بالطاعة ، وأقرت له بالسلطان ، وكيف خافه الناس حتى فزعوا من ذكر اسمه ، وكيف أحبه أصحابه وتعلقوا به ، وتفانوا فى خدمته .

وكان أبو جعفر المنصور ينتظر من أبى مسلم لقاء حاراً ، واستقبالا رائعاً ، وحفاوة بالغة ، ولكنه لقى منه دون ما كان يتوقعه ، وما يليق بقدره ، وهو أخو الخليفة القائم ، وولى عهده من بعده .

وحزت هذه المقابلة فى نفس أبى جعفر ، فأسرها فى نفسه ، كما

أسر ما قبلها من أسباب النفور . .

وحدث فى أثناء إقامة أبى جعفر المنصور بخراسان أن أبا مسلم اشتبه فى أمر كبير نقباء خراسان ، واسمه سليمان بن كثير ، وبلغه عنه ما رابه فى أمر إخلاصه للدعوة العباسية ، فغضب أبو مسلم على ابن كثير ، ولم يجد متنفساً لهذا الغضب إلا أن يقتله بالشبهة ، دون أن يستشير فى ذلك أبا جعفر وهو نائب الخليفة إليه ، ودون أن يرجع فى النهاية إلى الخليفة السفاح نفسه ، الذى تفرض له الولاية ، وتجب له الطاعة ، فلا يقضى فى أمر كبير كهذا دونه . . .

وعاد أبو جعفر المنصور من هذه الرحلة وفى نفسه من أبى مسلم أشياء . ودخل على أخيه الخليفة السفاح . فلما فرغ من سلامه وتحياته بادره الخليفة بقوله :

– كيف رأيت خراسان يا عبد الله ؟

– رأيتها يا مولاى وقد استقام فيها الأمر لأبى مسلم ، حتى لترهبه الأجنَّة فى بطون الأمهات .

– وما فى هذا بأس يا عبد الله ، فإن السلطان يقوم على الرهبة !

– نعم يا أخى ، ولكن رهبة أبى مسلم ليست مما يقوم عليه سلطانك

– كيف ذلك ، وأنا الخليفة يا عبد الله ؟

– يا أخى ، ويا أمير المؤمنين ! إنك لست بخليفة ما دام أبو مسلم حيا حتى تقتله . . فإنى أرى طاعة العساكر له ، وخضوعهم لأمره .

– اكتمها يا أخى ! اكتمها !

وخرج أبو جعفر من مجلس أخيه السفاح راضياً بأنه أشعل فتيلا فيما بينه وبين أبى مسلم من عداوة . وقد أكدت له رحلته إلى خراسان ما كان فى نفسه من شعور نحو هذا الرجل العنيد الصلف .

ومرت أيام قصار وإذا بالسفاح يستدعى أبا جعفر إليه ، ثم يأخذ ويعطى معه فى الحديث قائلا :

– كيف حال دولتنا الآن يا عبد الله ؟

– بخير : لولا وجود أبى مسلم فى بعض أقطارها !

– ألا تدع عنك يا أخى ذكر أبى مسلم ؟ أما كان أولى بك أن تصب نقمتك على عدونا وعدو دولتنا ابن هبيرة نائب مروان الخليفة الأموى المقتول ؟ إنه الآن فى مدينة واسط ، ونخشى أن ينفتح علينا الشر من ناحيته . . .

– لا تخش سوءاً إن شاء الله يا أمير المؤمنين ! فإنى أكفيك الآن شر ابن هبيرة !

– مكن الله لك يا عبد الله من عدونا . . فسر على بركة الله .

وسار أبو جعفر ميمماً شطر مدينة واسط لقتال ابن هبيرة ، وهو البقية الباقية من فلول الأمويين الذين ذهبت دولتهم ، وحلت محلها الآن دولة بنى العباس . وضيق أبو جعفر الخناق على ابن هبيرة ، الذى أراد أن يستفيد من الظروف القائمة فيبايع لإمام من أئمة الطالبيين ، نكاية

منه فى العباسيين ونقمة عليهم . وقد كتب فعلا إلى الإمام محمد بن عبد الله ابن الحسن الطالبى يعرض عليه طاعته ، فلما أبطأ عليه رد الجواب ، لم يجد بدًّا من مصالحة أبى جعفر المنصور .. وجرت بينهما السفارة على الصلح فبعث أبو جعفر إلى أخيه الخليفة السفاح يستأذنه فى إمضاء الصلح فأذن له فى ذلك .

وكتب أبو جعفر كتاب الصلح وبعث به إلى ابن هبيرة ليمضيه ، فأخذ الرجل يقرؤه مرة ثانية وثالثة ، ويعاود النظر فى نصوصه ، ويشاور فيه العلماء أربعين يوماً ، حتى يضمن الأمان لنفسه . ثم رده إلى أبى جعفر الذى أراد أن يأخذ عليه موافقة أبى العباس السفاح .

وكتب السفاح إلى أبى مسلم يستشيره فى مصالحة ابن هبيرة ويخبره بما كان من إقدام أبى جعفر على الصلح .. فرأى أبو مسلم الفرصة سانحة للطعن فى رأى أبى جعفر ، ولمعارضته حتى لا يتم كما يشتهى له ، وأشار بقتله ، وكان للسفاح ثقة كبيرة فى أبى مسلم . فلما وقع الصلح على يدى أبى جعفر لم يحب السفاح ذلك ولم يعجبه ، لأنه جرى على خلاف ما أخذ به من رأى أبى مسلم ، فكتب إلى أخيه أبى جعفر يأمره بنقض الصلح ، وبقتل ابن هبيرة . ولكن أبا جعفر رأى فى ذلك خلاف ما تم عليه الاتفاق أولا ، وخشى أن يرمى بالغدر ونقض العهود ، ويظهر أمام الناس جميعاً بمظهر الناكث الذى لا عهد له . فراجع الخليفة فى ذلك ، والخليفة مصر على رأيه فى القتل ، وهو الرأى الذى ارتآه أبو مسلم .

وأذعن أبو جعفر لرأى أخيه أبى العباس بعد أخذ ورد ومراجعة . وكان آخر كتاب بعثه السفاح إلى أخيه يقول فيه : (اقتله لا محالة) فلم يجد أبو جعفر مفراً من تنفيذ أمر كان هو على خلاف الرأى فيه .

ولا شك أن الدور الذى لعبه أبو مسلم هذه المرة يدل على مبلغ دهائه ، فقد استطاع بمشورته على السفاح بقتل ابن هبيرة أن يصور جعفر – وهو الذى أعطى عهد المصالحة والأمان – بصورة الغادر ، ويظهره بمظهر الناقض للعهود .

وأسر أبو جعفر فى نفسه هذه الفعلة لأبى مسلم الخراسانى ، كما أسر ما قبلها من أسباب النفور . .

مقابلة الثورات بالسلاح

نحن الآن فى المدينة الهاشمية بالكوفة حيث قصر الإمارة الذى اتخذه أبو العباس السفاح مقرًّا لخلافته . وقد استراح السفاح بعد مقتل الخليفة الأموى مروان ، ولكنه لم يظل على الكرسى هادئاً دقيقة واحدة . لقد كان التفكير فى دولته الجديدة الناشئة وفى الساخطين عليها ، والمتربصين بها يؤرقه إذا نام ، ويشغل باله إذا صحا . .

مسكين هذا الخليفة الجديد الذى اتسع عليه باب الخلاف من ناحية ، وانفتح أمامه باب بل أبواب كثيرة للخروج عن سلطانه . فهؤلاء أهل مدينة قنسرين خلعوا السواد شعار العباسيين ولبسوا البياض شعار الأمويين ، وخلع أميرها السفاح ووافقه أهلها على هذا الخلع . وأهل البلقاء كذلك . حتى مدينة دمشق نهض أهلها مع رجل اسمه « عثمان بن سراقة » فثاروا على الدولة الجديدة ، وخلعوا السفاح ، ولبسوا البياض . أما أهل الجزيرة فقد قلدوا أهل قنسرين فيما فعلوه من خلع الخليفة أبى العباس ، وثاروا على رجاله وعلى نائب حران من جهة السفاح ولبسوا البياض أيضاً .

وخشى السفاح من هذه النكسة السريعة المفاجئة التى أصابت

الدعوة العباسية ، ووطد العزم على أن يقابلها بالشدة التى تكبح جماحها ، وتمنع حرانها .

وخشى السفاح أن يكون وزيره أبو سلمة الخلال من الممالئين عليه المدبرين المكايد فى السر له ، وخاصة بعد موقفه الذى أشرنا إليه قبلا ، وهو محاولة أن يصرف الخلافة عن البيت العباسى إلى بيت أبى طالب .

وكان السفاح بعد أن بايعه أبو سلمة الخلال مرغماً مع المبايعين على حذر شديد منه ، وتيقظ تام لحركاته ، حتى كان يعد عليه أنفاسه . . .

ولقد تسرب الشك إلى قلب السفاح ، وخاف أن يكون موقف « الخلال » بممالأة من أبى مسلم الخراسانى وبتحريض منه . وأراد أن يستوثق من ذلك ، فكان ما كان من أمر رحلة أبى جعفر المنصور إلى أبى مسلم ، ليعرف حقيقة الأمر . وقد تعهد أبو مسلم حينذاك بأن يكفى العباسيين شر أبى سلمة الخلال . أو بعبارة أخرى تعهد بأن يتخلص منه بالقتل حتى يسد على الدولة العباسية باب الشر من ناحيته . .

ولم ينس أبو مسلم الخراسانى ما تعهد به . . فبينما الخليفة السفاح فى قصر الإمارة يسمر مع بطانته وفيهم وزيره أبو سلمة الخلال ، إذا بفتى شديد العضلات ، قوى البناء اسمه « مرار » يفد إلى باب القصر منتظراً متربصاً فى ظلام الليل بمنأى عن الأنوار التى كانت تموج بها رحبات قصر الإمارة من الداخل . فلما انفض السمار والسامر خرج

كل إلى منزله ، وإذا بالفتى « مرار» ينقض على أبي سلمة الخلال فيقتله . .

وسرعان ما شاعت الأقوال فى رحاب الكوفة الهاشمية بأن الخوارج هم الذين قتلوا وزير السفاح .

ولم يكتف أبو مسلم بهذا التدبير الذى تخلص به من منافس خطير ، بل أخذ يتعقب أصحاب أبي سلمة الخلال فيما وراء العراق ، ثم أرسل إلى فارس أحد قواد العباسيين واسمه محمد بن الأشعث ، وأمره أن يأخذ عمال أبي سلمة الخلال وأتباعه وأنصاره فيضرب أعناقهم .

ونفذ القائد فعلا ما أمره به الداهية الخطير .

والحق أن الوزير أبا سلمة الخلال ذهب دمه شفاء لأحقاد أبي مسلم الخراسانى ودسائسه . فقد كان الخلال رجلا وقور الطلعة ، حسن الهيئة ، كثير الفضل ، حسن المفاكهة ، حلو المسامرة ، لطيف المحاضرة ، وكان السفاح يأنس به ويميل إليه ، ولكنه توهم فيه الميل إلى آل على بن أبي طالب ، وجسم أبو مسلم الخراسانى هذا الوهم فى نفس السفاح ، وصوره عند الخليفة العباسى وعند أخيه أبي جعفر المنصور بصورة الممالئ الخطير ، وأباح لنفسه أن يسلط عليه من يقتله وهو خارج من قصر الخلافة . بعد سمر سعيد ، حيث لم يكن يخطر على باله هذا المصرع الشنيع . .

ولم تكن هذه الشدة التى تبدو من أبي مسلم الخراسانى ، وهذه

القسوة البالغة فى الطبع جديدة عليه ، فإن خراسان لم تذعن له إلا بعد أن جرد لها السيف على حديه . . وكل بلاد فارس لم تخضع له إلا بالرهبة له والهيبة منه .

ولما كثرت الخلافات والخروج على العباسيين وعلى السفاح فى أوائل عهده لم يكن هناك من علاج إلا شفرات السلاح . حتى إنه لم يرحم فى ذلك قريباً ولا ذا صلة . فقد خرج عليه فى سنة ١٣٣ ﻫ ببخارى « شريك ابن شيخ المهرى » وكان رجلا قوى الحجة ، قوى الأنصار معاً ، وأنكر على أبى مسلم قسوته فى الدعوة العباسية والبيعة لهم والمدافعة دونهم ، وقال فيما قال :

— ما على هذا بايعنا آل محمد — أى العباسيين — على سفك الدماء وقتل الأنفس ؟

وقام « شريك » وقام معه أكثر من ثلاثين ألفاً ، ولكن أبا مسلم لم يبال بهذه الحملات ، فقد تمرس بها ، واعتادها . وأرسل إلى الثائر البخارى جيشاً قوياً على رأسه « زياد بن صالح الخزاعى » فقاتله وقتله .

ولم يهدأ أبو مسلم الخراسانى لحظة واحدة فى تلك البلاد المترامية الأطراف ، فهو لا يكاد يسد باباً للشر هنا إلا انفتحت عليه هناك للشر أبواب . حتى رجاله الذين كان يبعث بهم لقتال العصاة ، كثيراً ما خرجوا عليه ، وثاروا ضده ، طمعاً منهم فى أن تكون تلك الأرض البعيدة لهم .

فهذا قائده زياد بن صالح الخزاعى ، لم يكد ينتصر على الثائر « شريك » ويقتله ، حتى حدثته نفسه هو بالثورة على أبى مسلم وعلى العباسيين . . وفعلا خرج على أبى مسلم من وراء نهر بلخ ، فلم يجد داهية بنى العباس من وسيلة إلا أن يقمع ثورته بنفسه ، فذهب إليه فى جيش قوى ، وبدد شمله ، وفرق عسكره ، وانتهى به الأمر إلى أن استقامت له الأمور فى تلك النواحى .

وقد سبق انتصاره على « زياد » غزوتان كبيرتان وسع بهما رقعة الدولة العباسية شرقاً إلى أواسط آسيا ، أما الغزوة الأولى فقد تولاها هو بنفسه إلى بلاد الصغد ، وأما الغزوة الثانية فقد كاف بها « أبا داود » أحد نوابه ، وأمره أن يذهب إلى بلاد « هندوكش » . فذهب الرجل إليها ، وأوغل فيها ، وغنم من الأوانى الصينية الجميلة المنقوشة بالذهب شيئاً كثيراً جداً . . وعاد بكل ما حمله من المغانم إلى أبى مسلم وهو بمدينة سمرقند . ثم أخذ يفض الأحمال ، ويخفف الأثقال ، ويعرض أمام أبى مسلم من الذخائر والطرف ما لم تر العيون مثله . فهذه أوعية مطعمة بالذهب النضار ، وهذه سروج من خالص العقيان ، وتلك أمتعة من فاخر الديباج ، فى ألوان تبهر الأنظار ، وبريق يكاد يخطف الأبصار .

العداوة بين رجلين . . .

كانت السنوات الأربع تمر تباعاً منذ مبايعة الناس لأبى العباس السفاح بالخلافة سنة ١٣٢ هـ ، وكانت الأحداث تتوالى على الدولة الجديدة بخيرها وشرها . وكان الناس فى شغل شاغل ، بعضهم يبنى للدولة ، وبعضهم يسعى لهدمها . وبعضهم واقف يترصد حتى إذا أمكنته فرصة للوثوب وثب ، أو للثورة ثار .

ونحن الآن لا يعنينا أمر الأحداث فى مجموعها قدر ما يعنينا أمر أبى مسلم الخراسانى . فنحن معه — وحده — فى هذا الكتاب على ميعاد . . .

لقد دخلت سنة ١٣٦ هـ وأبو مسلم فى شغل شاغل بخراسان وما وراء خراسان عن لقاء الخليفة أبى العباس . وأبو العباس لا يريد أن يشق عليه بتكليفه القدوم إليه ، بل يكتفى بأن يبعث له أخاه أبا جعفر المنصور — كما سبق القول — وإن كانت مهمة المنصور للاستطلاع والتعرف ، لا للمجاملة والتودد .

والآن وقد هدأت الأحوال فى أطراف الدولة العباسية ، واستقر السلطان لبنى العباس ، فإن أبسط الواجبات يقضى على أبى مسلم أن يخف

إلى لقاء مولاه وخليفته أبي العباس السفاح .

لقد كتب إلى الخليفة يستأذنه فى القدوم عليه ! وأيقن الخليفة أن هذا الرجل الداهية لا يتحرك وحده ، ولا فى قلة من بطانته ، وإنما تنتفض حوله أجنحة جيوشه التى دوخ بها إقليم خراسان . فكتب إليه الخليفة أن يقدم فقط فى خمسمائة من الجند ! ولكن أبا مسلم الداهية الخبيث يكتب إلى الخليفة مستقلا هذا العدد الذى حدده السفاح ويقول فى كتابه :

– إنى قد وترت الناس ، وإنى أخشى من قلة الخمسمائة !

فيرد عليه السفاح آذناً له فى أن يقدم عليه فى ألف من رجاله لا يزيد !

ولكن أبا مسلم لم يكن آمناً وهو فى إقليم خراسان بعيداً عن قصر الخلافة ، ومقر الإمارة ، فكيف يأمن وهو مقبل بشخصه ، وقادم بنفسه ؟ ؟

لقد جاء الرجل ومعه ثمانية آلاف ! كأنما جاء ليفتح بلداً لا ليقابل خليفة ، ويقدم له فروض الطاعة والولاء . .

وفرق الرجل الداهية من معه من الجنود الثمانية الآلاف ، حتى لا يعرف رجال الخليفة عددهم بالضبط ! وأوصاهم أن يدخلوا المدينة من أبواب متفرقة لا من باب واحد . . وحمل معه كثيراً من الأموال العظيمة ، والتحف النادرة ، والهدايا الثمينة .

ودخل أبو مسلم الكوفة الهاشمية بألف فقط من الرجال كما كتب إليه السفاح . وأمر الخليفة قواده ورجال بطانته وسائر الناس أن يخرجوا ظاهر البلد ليستقبلوه . وخرج هؤلاء جميعاً إلى مسافات بعيدة من أرباض الكوفة ليتلقوا ضيف أمير المؤمنين .

ولما دخل على السفاح أحسن لقاءه ، وبالغ فى الحفاوة به ، والهشاشة لمقدمه ، وأكرمه وأعظمه ، وأنزله من مجلسه فى حضرة الخلافة منزلا دانياً ، ومكاناً قريباً . وأذن له أن يأتى إلى قصر الخلافة كل يوم .

وفى يوم من الأيام التى أقامها أبو مسلم الخراسانى فى بلاط السفاح ، استأنس من الخليفة فرصة ليستأذنه فى الخروج إلى حج بيت الله الحرام ، وكان قصد الخراسانى من ذلك أن يظفر بإمارة الحج هذا العام . فليس هناك من هو أولى منه بالتقدم عليه من دعاة بنى العباس . ولا شك أن فى إمارته للحج تقوية لمركزه ، وتوطيداً لنفوذه ، ومزيداً من الجاه له عند الناس . وأدرك السفاح قصده فأراد أن يفوته عليه ، قائلا :

– يسرنى أن ييسرك الله إلى أداء الفريضة وإحياء المشاعر . ولولا أنى عينت أخى أبا جعفر – قبل أن تستأذن منى – لإمارة الحج هذا العام لعينتك أميراً .

وبالطبع كان تعيين المنصور لإمارة الحج فى العام الذى سيخرج فيه الداهية أبو مسلم لأداء الفريضة سبباً لإشعال ما بين الرجلين . . فقد اعتقد أبو مسلم أن ذلك إنما جاء بسعى أبى جعفر وبتدبيره ، فحقدها

عليه . وكانت الأحداث اليومية العادية تزيد من أسباب النفور بين الرجلين . ففى يوم من الأيام دخل أبو مسلم قصر الخلافة على أبى العباس السفاح ، وكان أبو جعفر المنصور حاضراً فى المجلس . فسلم أبو مسلم على الخليفة ولم يسلم على أبى جعفر . ولعله لم يلاحظه رهباً من المجلس ، أو لعله لاحظ حضوره وتعمد إغفاله . وقصد ترك السلام عليه . وكانت فى أبى مسلم غطرسة شديدة ، وكبرياء أعانه عليها قوة مركزه ، وشدة بأسه ، وأياديه التى أسداها إلى الدولة العباسية ، فهى مدينة له بتثبيت قواعدها ، واستقرار الأمور لها وخاصة فى أقاليم خراسان .

وأراد أبو العباس السفاح أن لا تفوته هذه الإغفالة من أبى مسلم الخراسانى لمكان أخيه المنصور ، فنبهه إلى ذلك فى المجلس أمام المنصور ، فما كان أسرع جواب أبى مسلم قائلا :

— إنى قد رأيته ؛ ولكن هذا مقام لا يقضى فيه حق غيرك !

وهكذا تخلص أبو مسلم من الورطة التى أوقعه فيها السفاح بإرضائه وبإفراده هو وحده بحق السلام والاحترام ، ولكنه لا شك كان يعلم أن هذا الرد على ما فيه من حسن التخلص بإرضاء الخليفة يحز فى نفس أبى جعفر ، فلا ينساها أبداً للداهية العنيد أبى مسلم . . .

وبدأت مراجل الغيظ والحقد تغلى فى صدر أبى جعفر المنصور . وكان شبح الخراسانى يؤرقه ، ويود لو خلت الدنيا منه بأية سبيل .

وذات يوم دخل المنصور على أخيه الخليفة أبى العباس يشيم منه فرصة للتحدث معه فى أمر أبى مسلم . وفيم يدور الحديث إلا فى الخلاص من هذا الخصم اللدود ؟ واستأنس الرجل من أخيه فرصة لمصارحته بالأمر قائلا :

– يا أمير المؤمنين ! إننى خارج إلى بيت الله هذا العام كما شرفتنى بالإنابة عنك وإمارة الحج . وهى فرصة أرجو أن يزيد الله بها تمكين القلوب حولك ، وإجماع الرأى عليك . ولكننى سمعت همساً يدور فى أنحاء « الأنبار » أن أبا مسلم غاضب لأنك شرفتنى بتقديمى عليه فى إمارة الحج . وهو بهذا يستقل سلطانك ، ويجهل قدرتك ، ويجحد أياديك . وقد نفخ الغرور الرجل ، حتى أدركه كل من فى بابك ! وإنى لألمح فى رأسه غدرة . فهلا أرحت نفسك وأرحت الدولة منه بالقتل؟

فأطرق السفاح ملياً ، ثم قال :

– يا عبد الله ! كيف أجرؤ على ذلك ، وللرجل يد سلفت ، وحرمة وجبت ، فقد علمت بلاءه معنا ، وخدمته لنا .

وكأن أبا جعفر استكثر على أبى مسلم هذه الشهادة من فم الخليفة فقال :

– يا أمير المؤمنين ! إنما ذلك بدولتنا ، ما فى ذلك لأحد فضل . والله لو أرسلت سنوراً (قطة) لسمعوا لها وأطاعوا .

– وبأى ذنب أقتله يا عبد الله ، والرجل إلى الآن لم يبد منه ما يدل

على الغش لنا ، والغدر بنا ؟

– يا أمير المؤمنين ! إنك إن لم تتعش به تغدى هو بك !

وسكت أبو جعفر عند هذا الحد من الإغراء والتحريض ، وأطرق السفاح لحظة كأنما يسوغ لنفسه فعل ما يقترحه عليه أخوه المنصور . وفجأة رفع رأسه بالسؤال التالى :

– ولكن ! كيف السبيل إلى ذلك ، وكيف تتم الخطة التى تتدبرها للخلاص منه ؟

– الأمر أهون يا مولاى من إطالة التفكير فيه ! إذا دخل عليك فاستقبله كما هى عادتك معه ، وأقبل عليه ، وحادثه كما تحادثه كل يوم حين يدخل عليك . فلا يشعر شيئاً ، ولا يستريب فى أمر . ثم أجيء أنا فأدخل الباب عليك وآتى من ورائه فأضربه بسيفى . . .

وتنبه الخليفة هنيهة ، واستدرك قائلا :

– ولكن كيف بمن معه من صحابته و بطانته ؟

فأجاب أبو جعفر على الفور :

– هم أذل وأقل . . .

فسكت السفاح ، ولم يكن سكوته إلا علامة الرضى عما اقترحه المنصور .

وجاء اليوم المحدد لتنفيذ خطة القتل والخلاص من أبى مسلم . ودخل الرجل على الخليفة ، فلما رآه أقبل عليه كعادته . وهنا تحركت

فى نفسه خواطر : كيف يقتل رجلا أحسن إلى الدولة ووطد سلطانها ، وشارك مخلصاً فى تأسيسها ؟ وكيف يستبيح لنفسه أن يحمل دم رجل لم يرتكب ما يستحق عليه أن يسفك دمه ؟

وبدا على وجهه أنه مضطرب النفس ، فبعث فى الحال إلى خادمه الخاص ، وهمس فى أذنه هذه الكلمات :

– إذهب إلى أخى أبى جعفر فى الحجرة المجاورة ، فقل له : إن الذى بينك وبين أمير المؤمنين قد ندم عليه ، فلا تفعله !

وذهب الخادم بالطبع وهو لا يدرى شيئاً عما كان بين الخليفة وأخيه . لأن السر كان بينهما فقط . وما كان أشد دهشة الخادم وفزعه حين دخل على المنصور الحجرة التى عينها له الخليفة ، فإذا به يراه محتبياً السيف ، وهو على تمام الأهبة ، متهيئ لما يريد من قتل أبى مسلم . فلما نهاه الخادم عن تنفيذ الذى كان بين السيدين غضب غضباً شديداً .

وهكذا شاء الله للرجل الداهية أن يفلت من القتل هذا اليوم ، بعد أن لم يكن بينه وبين المنية إلا مثل لمح البصر . ولكن القدر أنجاه اليوم من هذا المصير العاجل إلى مصيره المحتوم عما قريب .

أمير الحج . .

فى أخريات سنة ١٣٦ هـ كان الطريق إلى بيت الله الحرام بمكة عامراً بالآتين من كل فج عميق ، وهم راجلون أو راكبون على كل ضامر ، وقد اتجهت قلوبهم إلى الله ، وخلفوا وراءهم ما كانوا يتعلقون به من شهوات الدنيا ومطامعها ، ليذكروا اسم الله فى بيته العتيق ، وقد تجردوا مما يشغل الخاطر ، ويقلق النفوس .

وكانت أباطح الطريق وشعابه إلى بيت الله تسيل بموكب أبى جعفر المنصور أخى الخليفة أبى العباس السفاح وأمير الحج لهذا العام نيابة عن أخيه . وكان الطريق نفسه يحمل ركب أبى مسلم الخراسانى الذى أذن له السفاح فى الحج هذا العام ولكن غير أمير . .

واحتمل أبو مسلم الخراسانى هذه الفعلة التى فعلها معه أبو جعفر بموافقة السفاح ، وصمم على أن يكون مظهره فى موسم الحج أكثر وجاهة ، وأعظم فخامة من مظهر المنصور نائب الخليفة . وهذا بالطبع لن يكلفه كثيراً ، فالمال وافر عنده ، والعطايا جزيلة معه ، والهدايا جليلة بين يديه . وهو فوق هذا رجل مسماح معطاء ، لا يبخل ولا يضن ولا يحرص على المال كما يحرص عليه أبو جعفر المنصور .

وكان أبو جعفر يحمل بالطبع معه كثيراً من المال ليفرقه على فقراء الحجاز باسم الخلافة العباسية ، تألفاً لقلوبهم ، واجتذاباً لولائهم . ولكن حرص أبى جعفر فى الإنفاق كان دائماً مضرب الأمثال . فأخذ أبو مسلم ينفق عن سخاء ، ويفرق الأموال عن سعة ، ويهب العطايا عن تألُّف ، ويكسو الأعراب عن سماح ، حتى كانت نفوس الناس دائماً فى الموسم تهفو إلى مضارب خيامه . ولا غرو فى ذلك فالشاعر يقول :
والمورد العذب كثير الزحام .

وانتهى موسم الحج ، وفرغ الناس من إقامة مناسكهم ومشاعرهم ، وأخذ كل إنسان يتهيأ للعودة إلى بلده ، بعد أن أدى الفريضة ، وتقرب إلى الله بالطاعة ، وعاد ركب أبى جعفر إلى الأنبار ، وفى الطريق نفسه عاد أبو مسلم الخراسانى بمن فى ركابه من الصحاب والأتباع .

كان أبو جعفر متقدماً فى ركبه على ركب أبى مسلم ، وبينهما طبعاً على طول الطريق مدى بعيد . فلما بلغ الركب « ذات عرق» جاء الخبر إلى أبى جعفر يعلمه بموت أخيه أبى العباس السفاح ، وانتقال الخلافة إليه ، بعد أن كتب له السفاح كتاباً بولايته عهد المسلمين من بعده .

فتوقف ركب أبى جعفر بعض الوقت ، وكتب إلى أبى مسلم — وكان وراءه على الطريق ببعض المراحل — يستعجله فى القدوم عليه ، قائلا من من كتاب له :

— قد حدث أمر ! فالعجل ! العجل !

ولم يكن أبو مسلم الخراسانى يعلم الذى حدث ، فلما استعلم الخبر ، عجل السير وراء المنصور حتى يدركه فى الطريق .

وأخذت نجائب الركب تسرع بأبى مسلم ، حتى بلغ ركب الخليفة الجديد أبى جعفر المنصور ، فلما جلس ، ألقى كتاب المنصور بين يديه ، وبكى ، وأخذ يردد قوله تعالى : « إنا لله وإنا إليه راجعون » . ثم رفع رأسه لينظر إلى أبى جعفر وقد جزع جزعاً شديداً . فقال له :

– يا أمير المؤمنين ! ما هذا الجزع ؟ وقد أتتك الخلافة ؟ قال :

– هى عبء انضاف على كاهلى وكنت منه خالياً ، وكان السفاح يكفينا إياه . . .

فأجابه أبو مسلم :

– ومم تتخوف وقد صفت لك الأمور ؟

– أتخوف يا أبا مسلم شر عمى عبد الله بن على بن عباس ، وشيعة على بن أبى طالب . . .

– لا تخفه يا أمير المؤمنين ! فأنا أكفيكه إن شاء الله ! فإنما عامة جنده ومن معه هم أهل خراسان ، وهم لا يعصوننى . . .

لقد أفصح أبو جعفر المنصور لغريمه أبى مسلم الخراسانى عن اثنين من خصومه الذين يخشى بأسهم . ولكنه كان يكتم فى قرارة نفسه خوفه من أبى مسلم نفسه ، فهو يأتى فى أول قائمة الخصوم الذين يحسب حسابهم . . .

العم الخارج

لم يكن أبو جعفر المنصور واهماً فى تخوفه من خروج عمه عبد الله ابن عباس عليه . فإنه ما كاد يرجع من الحج بعد موت أخيه السفاح حتى دخل الكوفة فخطب بأهلها خطبة الجمعة وأمهم فى الصلاة . فكان ذلك مبايعة من أهلها له . ثم ارتحل إلى الأنبار ، فانعقدت له فيها البيعة . وكذلك كان الحال فى العراق وخراسان وسائر البلاد ، إلا الشام ، فإن عمه عبد الله بن على لما علم من كتاب المنصور إليه بوفاة السفاح ، قام فى الناس خطيباً ، فذكر لهم أنه أحق بالخلافة من ابن أخيه ، لأن السفاح كان عهد إليه بالخلافة من بعده إذا انتصر على مروان آخر خلفاء بنى أمية . أما وقد تم النصر له فقد وجب له العهد دون أبى جعفر . ووجد عبد الله بن على من بعض أمراء العراق من يشهد له بذلك أمام الناس ، فنهضوا إليه وبايعوه . ومن هنا انفتح باب جديد للشر على أبى جعفر المنصور فى مستهل عهده بالخلافة .

وأخذ أمر عبد الله بن على بن عباس يزداد ، وشأنه يقوى ، وأتباعه يكثرون ، حتى استطاع أن يسير إلى مدينة « حران » ، وكانت أحد معاقل المنصور ، فحاصرها أربعين ليلة كاملة ، حتى ضاق أهلها

بالحصار فسلمها نائب الخليفة إلى عبد الله .

وكان سقوط حران ومقتل نائبها من ناحية أبي جعفر من أشد الأنباء هولا عليه ، وتأثيراً فى نفسه . ولم يجد لهذه النازلة الجسيمة غير أبى مسلم الخراسانى ، يفك عقالها ، ويصلح أحوالها . فبعث به لمقاتلته ومعه جماعة من الأمراء . واستطاع عبد الله أن يتحصن بمدينة حران ، وأن يختزن فيها من الطعام والأسلحة شيئاً كثيراً جداً مما يكفى لمقاومة أى مهاجم وصد أى محارب .

وجرت بعد ذلك أحداث ترك بعدها عبد الله مدينة حران وأقبل على مدينة نصيبين ، وخندق فيها . وأقبل أبو مسلم الخراسانى يتبعه . ولكنه لم يتعرض له بقتال ، وكتب إليه يقول : إنى لم أومر بقتالك ، وإنما بعثنى أمير المؤمنين والياً على الشام ، فأنا أريدها .

وأراد أبو مسلم بذلك أن يصطنع المكيدة والمكر بعبد الله ، وأن يعزل عنه رجاله حتى يتمكن منه . ولكن الظروف اضطرته إلى إعلان الحرب ، فحارب جيوش عبد الله خمسة أشهر . وكان على خيل عبد الله ابن على بن عباس أخوه عبد الصمد بن على ، وعلى ميمنته بكار بن مسلم ، وعلى ميسرته حبيب بن سويد . أما جيش أبى مسلم فكان على ميمنته الحسن بن قحطبة ، وعلى ميسرته أبو نصر خازم بن خزيمة . وما هى إلا أن دوى نفير الحرب ، وبدأت الموقعة حتى حمل أصحاب عبد الله على معسكر أبى مسلم الخراسانى حملة شديدة ، فأزالوهم عن

مواضعهم ، ورجعوا إلى مراكزهم الأولى .

ثم حمل عليهم عبد الصمد بن على – عم الخليفة المنصور وأخو عبد الله – حملة صادقة فى خيل مجردة ، فقتل منهم ثمانية عشر رجلا ورجع إلى مكانه بين أصحابه .

ثم تجمعوا وحملوا بجمعهم ثانية على أصحاب أبى مسلم ، فزلزلوا صفوفهم ، وزحزحوهم عن أماكنهم ، وجالوا فى المعركة جولة صادقة ، فقتل منهم كثير .

وكانت هذا المعركة من أشد ما لاقاه أبو مسلم الخراسانى فى سلسلة حروبه فى سبيل الدعوة العباسية . وقد أخذ أصحابه يتراجعون منهزمين من شدة الطعن فيهم ، وصدق الحملة عليهم . ونصحه بعض رجاله قائلا :

– لو حولت دابتك إلى هذا التل المرتفع ليراك الناس فيرجعوا ، فإنهم قد انهزموا !

فكان جوابه :

– إن أهل الحجى لا يعطفون دوابهم على هذه الحال . ثم أمر منادياً فنادى الناس قائلا :

يا أهل خراسان ! ارجعوا فإن العاقبة لمن اتقى ورجع .

وأخذ أبو مسلم يدعو جنده إلى الصبر على القتال ، وضرب هو لهم المثل فى ذلك ، وصار يرتجز :

من كان ينوى أهله فلا رجعْ   فرّ من الموت وفى الموت وقع !

فكان أصحابه يسمعون ذلك منه فتأخذهم الصيحة ، فيندفعون إلى الموت لا يبالون . وصمم الرجل العنيد أبو مسلم الذى لم يخسر إلى اليوم معركة أن يجول الجولة الأخيرة فى الميدان ليكسب الموقعة من خصمه ، والتجأ إلى سلاح المكر والدهاء كما كانت تلك عادته دائماً . واتخذ له صميم المعركة عريشاً مرتفعاً يجلس عليه إذا التقت الجموع ، ليستطيع أن يشرف على أرض المعركة كلها ، وأن يسد الخلل فى صفوف جيشه . وأن يوجه فرق الجيش إلى الأماكن والمواقف التى تحميهم

واستطاع أبو مسلم بسلاح المكيدة والمكر أن يحول ميمنة جيشه إلى الميسرة حتى ينشغل العدو بذلك الوضع فيتحولوا بميسرتهم إلى ميمنتهم لتتعادل الفرقتان المتقابلتان . ولكنه كان محتاطاً لذلك ، ومدبراً له أحكم التدبير . فأمر أهل القلب من جيشه ، فحملوا على من بقى من شجعان ميمنته على ميسرة أهل الشام وهم جنود عبد الله ، فحطموهم تحطيما . واستطاعوا أن يحدقوا بجنود عبد الله وأن يطبقوا عليهم ، حتى لم يعد من الهزيمة بد

وانهزم فعلا أصحاب عم الخليفة المنصور ، وفقد عبد الله صواب الرأى من نفسه فلجأ إلى أحد رجاله وقواده وهو ابن سراقة الأزدى يستشيره فيما يجب أن يكون عليه الرأى قائلا :

– يا ابن سراقة ! ماذا ترى فيما نحن فيه ؟

– الرأى يا مولاى أن تصبر وتقاتل حتى تموت .

– ولكن الفرصة الآن ممكنة لخلاصنا مما نحن فيه

– كيف الخلاص يا مولاى وقد انفض الرجال من حولك ؟

– إن الفرار هو السبيل إلى النجاة . .

ولم يكد عبد الله بن على يتم كلامه حتى قاطعه ابن سراقة قائلا فى حدة تشوبها نغمة ساخرة :

– إن الفرار قبيح بمثلك ، وقد عبته على مروان الأموى يوم كنت تقاتله .

– إذن أنا آتى العراق .

– أنا معك منهزماً ، لا فاراً . . .

وهكذا ترك عبد الله ورجاله عسكرهم ، فاستولى عليه أبو مسلم الخراسانى ، واحتاز كل ما كان فيه من غنائم ومغانم .

موضع للاتهام

استراح أبو مسلم الخراسانى من أهوال المعركة القاسية التى دارت بينه وبين عم الخليفة أبى جعفر فى الشام ، وأخذ ينفض عن جسده غبارها . ثم جلس ذات مساء يكتب إلى المنصور كتاباً يعلمه بنبأ الانتصار ويزف إليه بشرى هزيمة عدوه عبد الله بن على ، ويصف له بعض الغنائم التى صارت إليه من معسكر عبد الله .

وعلى قدر ما فرح المنصور بهذا النبأ فإنه ازداد خشية من زيادة نفوذ أبى مسلم . واتساع سلطانه ، وكان حمده لله على خلاصه من عمه عبد الله لا يوازى ما يرجوه من الحمد حين يكفيه الله شر أبى مسلم عدوه القديم المبين .

وأراد المنصور أن يختبر نفسية أبى مسلم ، وأن يثيره حتى يسبر أغوار نفسه ، ويقف على ما يدور بخاطره ، فبعث إليه أحد مواليه الأدنين : « أبا الخصيب يقطين » ليحتاط على ما أصابه أبو مسلم ورجاله من الأموال ونفائس الذخائر ، وثمين الجواهر . وغير ذلك مما صار مغنماً فى يد أبى مسلم

فلما بلغ أبو الخصيب مقام أبى مسلم ، وأنهى إليه رسالة أمير

المؤمنين ، وأعلمه بمهمته ، لم يملك صاحبنا نفسه من الغضب ، فثار ثورة شديدة لم يستطع كتمانها وهو الداهية الأريب ، وأخذ يفوه بكلمات فيها شتائم للخليفة المنصور ، وفيها من مر الكلام ما لا يليق صدوره من رجل مثله فى حق خليفة تدين له دنيا الإسلام بالطاعة والولاء .

ولم يسلم حتى أبو الخصيب من رشاش هذه الثورة الجامحة ، وكاد أبو مسلم يهم بقتله وهو لا ذنب له ، لولا أن نبهه بعض من شهد المجلس قائلا إنه رسول ، والله تعالى يقول : «ما على الرسول إلا البلاغ » ، فتركه .

ورجع أبو الخصيب إلى أبى جعفر يجرر أذيال الخيبة والحرمان ، وقص على الخليفة كل ما جرى من أبى مسلم ، وكل ما بدر منه من كلام حتى جاشت نفس المنصور ، وغضب غضباً شديداً لم يستطع كتمانه أمام من كان فى مجلسه ، وكان فيهم أبو أيوب كاتب رسائل المنصور وأحد ثقاته . فاستأذن من الخليفة فى الكلام قائلا :

– مولاى ! لقد أطلت حلمك على هذا اللئيم ، حتى تطاول فى غيه وضلاله وسفهه . ألم أقل لك يا مولاى قبل ذلك أن الحسن بن قحطبة كتب إلى يخبرنى بموقف هذا الوغد منك حين تأتيه رسائلك ؟

إنه إذا جاء كتاب منك يا مولاى – والعهد على الراوى – بدأ يقرؤه ثم أخذ يلوى شدقيه ، ويمط شفتيه استهزاء ، ويرمى بالكتاب إلى صديقه أبى نصر – مالك بن الهيثم – ويغرقان فى الضحك ، سخرية منهما . ثم لا يستحيان أن يفعلا ذلك أمام بعض الحضور ، حتى ضاق

الحسن بن قحطبة بما رأى منه ومن صاحبه فكان يبعث إلىّ بما يراه . ولما كنت أعرف ذلك يا مولاى عن أبى مسلم ، مما لا أحتاج معه إلى شهادة شاهد ، كتبت إلى الحسن بن قحطبة أخبره أن تهمة أبى مسلم عندنا أظهر من هذا .

وهنا أجاب الخليفة أبو جعفر ، بعد أن كان يستمع إلى كلام أبى أيوب كلمة كلمة :

– أهكذا فعل أبو مسلم ؟ إن لى معه لشأناً . . .

وانفض المجلس وفى نفس الخليفة من أبى مسلم الخراسانى ما فيها من السخط عليه ، والتربص به . ولكنه كان يخشى أن يذهب أبو مسلم إلى خراسان ، خارجاً عن طاعته ، ناوياً معصيته ، فيشق عليه بعد ذلك تحصيل ما بيديه من غنائم جيش عبد الله بن على أولا ، وأن تحدث حوادث هو أولى بتفاديها الآن ثانياً . فكتب إلى أبى مسلم كتاباً ، وبعث به إليه مع مولاه ورسوله الأول : «أبى الخصيب يقطين» .

وكان مما جاء فى كتابه :

– إنى وليتك الشام ومصر ، وهما خير من خراسان . فابعث إلى مصر من تشاء من رجالك نيابة عنك ، وأقم بالشام لتكون قريباً منى ، فإذا أردت لقاءك أتيتنى من قريب ، وبهذا أجنبك مشقة الطريق . . .

وما كاد أبو مسلم يفرغ من قراءة كتاب المنصور إليه ، حتى عاد إليه غضبه الذى بدا منه أولا حين فوتح فى أمر إحصاء الغنائم والاحتياط

عليها ، وعز عليه – وهو صاحب اليد الطولى فى تأسيس الدولة العباسية – أن يبلغ من نفس المنصور هذا المبلغ ، وينسى له قديم بلائه فى الدعوة . وكان مما نطق به فى فورة الغضب : – يوليني الشام ومصر ، وينحيني عن خراسان ، وهى لى وأنا صاحبها ؟ إننى ذاهب إلى خراسان ، فأنا واليها ، وسأستخلف عنى من ينوب عنى فى ولاية مصر والشام . . !

وكتب الرسول « أبو الخصيب يقطين » إلى الخليفة المنصور بما قاله أبو مسلم . فقلق أبو جعفر لذلك قلقاً شديداً ، وأيقن أن بابه الشر الذى كان يتوقاه ، قد انفتح أكثر من ذى قبل .

أما أبو مسلم فقد عقد العزم على الخلاف ، وصمم على ملء نفسه من عصيان المنصور والمخالفة عن أمره ، وخرج عن وجهه يريد خراسان ، لا يبغى بها بديلا ، وليكن بعدها من الأحداث ما يكون .

وسار أبو مسلم فى طريقه إلى العودة إلى خراسان ، تاركاً الشام وراءه ، وبلغ أبا جعفر أمر مسيره ، فخرج بنفسه من الأنبار إلى المدائن ، فإن مثل هذه الحركة من أبى مسلم مما لا يحمل معها بقاء الخليفة فى الأنبار . وكتب إلى أبى مسلم كتاباً آخر بالمسير إليه . وبلغ كتاب أبا جعفر المنصور أبا مسلم الخراسانى وهو على نهر الزاب عازم على الدخول إلى خراسان ، فتوقف فى بعض مراحل الطريق ، وأمسك القلم وكتب إلى الخليفة المنصور الكتاب التالى :

– (إنه لم يبق لأمير المؤمنين عدو إلا أمكنه الله منه . وقد كنا

نروى عن ملوك آل ساسان — يعنى ملوك الفرس — أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء . . فنحن نافرون من قربك ، حريصون على الوفاء بعهدك ، ما وفيت ، حريون بالسمع والطاعة ، غير أنها من بعيد ! حيث تقارنها السلامة ، فإن أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك ، وإن أبيت إلا أن تعطى نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ، ضناً بنفسى عن مقامات الذل والهوان . . .) .

ولم تكن هناك صراحة أكثر من هذه الصراحة فى مخاطبة الرؤساء والخلفاء ، ولم تكن هناك مصارحة بالتخوف والخشية أكثر من هذه المصارحة ، كما لم تكن عزة واعتداد بالنفس فى مكاتبة الملوك أكثر من هذا . فلما وصل الكتاب إلى جعفر المنصور . أملى كاتبه الرسالة الآتية :

— (قد فهمت كتابك . وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الذين يغشون ملوكهم والذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم وإنما راحتهم فى تبدد نظام الجماعة . فلم سويت نفسك بهم . وأنت فى طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به ، وليست مع الشريطة التى أوجبت منك سمع ولا طاعة . وقد حمل أمير المؤمنين ، عيسى بن موسى إليك رسالة ، ليسكن إليها قلبك إن أصغيت إليها . وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزعاته وبينك . فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد عنده من هذا ، ولا أقرب من الباب الذى فتحه عليك . .) .

وجاء الكتاب إلى أبى مسلم ، فلم يدع الفرصة تمر من غير أن يجيب عنه ، مشيراً إلى ما سلف من أياديه ، مذكراً بما فعله لتوطيد سلطان العباسيين ، « حتى عرفهم من كان يجهلهم ، وأطاعهم من كان عدوهم . . . »

وأخذ المنصور يحتال بكل ما فى يديه من وسائل الحيل ليتألف قلب أبى مسلم ، وليثنيه عما عقد عزمه عليه ، بالكلام اللين تارة ، وبالتهديد تارة أخرى . وصار يبعث إليه الرسل والنواب والأمراء ، طوراً يلاينونه ، وطوراً يخاشنونه ويخوفونه مغبة الخلاف ، وعاقبة العصيان . ثم أمر المنصور بعض أمراء العباسيين وفرسانهم أن يكتبوا إلى أبى مسلم ، يترضونه ، ويعظمون شأنه ، ويثنون على ما سلف من خدمته ، ويسألونه أن لا يفسد ما سبق من الطاعة بما لا يحمد من العصيان ، ويحذرونه عاقبة البغى ، ويأمرونه بالعودة إلى المنصور ، طاعة له ، واستجابة لأمره ، وتبجيلا للخلافة ، وتقوية للجماعة .

ولم يكتف المنصور بذلك ، بل بعث كتاباً آخر – لعله كان آخر سهم فى كنانته – مع رسول ممتاز معروف بالدهاء وحسن التلطف ، ولطف السفارة وقال للرسول :

– يا أبا حميد ! كلم أبا مسلم بألين ما تكلم به أحداً ، واملأه بالأمانى وأعلمه أنى رافع قدره ، وصانع به ما لم يصنعه به أحد من علو المنزلة ، إن هو صلح ، وراجع ما أحب ، وجانب ما أكره . فإن أبى ،

فقل له : يقول لك أمير المؤمنين : إنه برىء من العباس إن شققت العصا ، وذهبت على وجهك . ولم يطلبك بنفسه . ولو خضت البحر الخضم لخاضه خلفك حتى يدركك فيقتلك أو يموت قبل ذلك .

وتوقف الخليفة المنصور لحظة عن الكلام ، ثم قال لرسوله أبى حميد :

– يا أبا حميد لا تقل له هذا التهديد الأخير حتى تيأس من رجوعه بالتى هى أحسن .

وانفض مجلس المنصور ، وذهب الرسول فى طريقه إلى أبى مسلم ليبلغه رسالة أبى جعفر ، وكان بعض رسل المنصور وسفرائه قد بلغوا أبا مسلم فى مدينة « حلوان » – وهى مدينة بالفرس – فلما اجتمعوا لديه ، أخذوا يتحدثون فى أمر عودته ، وأكدوا له رضا المنصور عنه إن هو أطاع وأذعن ، ولاموه فيما هم بالإقدام عليه من منابذة أمير المؤمنين والخروج عن أمره . وفيما هم يتناولون الحديث ، إذا بالرسول أبى حميد يدخل . فدفع إلى أبى مسلم كتاب المنصور ، ثم أعقب هذه الحركة بقوله :

– يا أبا مسلم ! إن الناس يبلغونك عن أمير المؤمنين ما لم يقله ، وينقلون إليك خلاف ما عليه رأيه فيك ، حسداً منهم وبغياً . يريدون إزالة النعمة ، وتغييرها . فلا تفسد ما كان منك ، ولا تشوه جمال ما سلف من صنيعك . يا أبا مسلم ! إنك لم تزل أمير آل محمد ، يعرفك بذلك الناس ، لا ينكرون عليك شيئاً من هذا . وما ادخر الله لك من

الأجر عنده أعظم مما أنت فيه من دنياك . فلا تحبط أجرك ، ولا يستهوينك الشيطان !

فاستعظم أبو مسلم صدور هذه النصائح من أبى حميد ، ورفع رأسه إليه قائلا :

– متى كنت يا أبا حميد تكلمنى بهذا الكلام ؟

فأجاب أبو حميد :

– إنك دعوتنا إلى هذا الأمر ، وإلى طاعة أهل النبى عليه السلام من ولد العباس ، وأمرتنا بقتال من خالف ذلك . فدعوتنا من بلاد متفرقة ، ومن جهات مختلفة . فجمعنا الله على طاعتهم ، وألف ما بين قلوبنا ، وأعزنا بنصرنا لهم ، ولم نلق منهم رجلا إلا بما قذف الله فى قلوبنا ، حتى أتيناهم فى بلادهم ببصائر نافذة ، وطاعة خالصة . أفتريد حين بلغنا غاية منانا ، ومنتهى أملنا أن تفسد أمرنا ، وتفرق كلمتنا ؟ ألا تذكر يا أبا مسلم أنك قلت لنا فيما قلت : من خالفكم فاقتلوه . وإن خالفتكم أنا فاقتلونى .

ولما فرغ أبو حميد من كلامه أقبل أبو مسلم على صاحبه أبى نصر مالك بن الهيثم فقال له :

– أما تسمع يا أبا نصر ما يقول لى هذا الرسول ؟ ليس هذا بكلامه هو يا مالك !

قال مالك :

– لا يهولنك هذا منه يا أبا مسلم ! فلعمرى ما هذا كلامه كما ذكرت ، وإن ما وراء هذا لأشد منه ... ! فامض لأمرك ، ولا ترجع إليه ! فوالله لئن أتيته ليقتلنك ، ولقد وقع فى نفسه منك شىء لا يأمنك بعده أبداً . ولما فرغ أبو نصر من كلامه تكلم آخر من أصحاب أبى مسلم فقال :

– ما الذى يحملك على الذهاب إلى الأنبار ، فى مكان قلق الوساد ؟ فاذهب إلى الرى حيث تكون خراسان تحت حكمك ، وجنودها طوع أمرك . وبذا تكون فى عز ومنعة ، لا تنالك الأيدى بسوء .

ولما انتهى أصحاب أبى مسلم الخراسانى من صرفه عن الرجوع إلى المنصور بدأ رسول الخليفة يهدد ويتوعد ، فما كان من أبى مسلم إلا أن وجه الكلام إلى رسل الخليفة جميعاً قائلا :

– ارجعوا إلى صاحبكم ، فلست ألقاه !

وأخذ أبو مسلم يقلب الأمر على وجوهه ، لعله يجد مخرجاً مما هو فيه ، وأخيراً اهتدى إلى أن يبعث أحد ثقاته واسمه أبو إسحاق إلى المنصور ليعرف بنفسه رأيه فيه ، ويطمئن منه على موقفه من أبى مسلم . وسار أبو إسحاق إلى الأنبار ، وقابل أبا جعفر ، ولقى منه حفاوة بالغة ، وإكراماً عظيماً ، ووعده بولاية العراق إن استطاع أن يرجع إلى أبى مسلم فيثنيه عن رأيه . . .

فلما رجع أبو إسحاق إلى أبى مسلم بدأه بالسؤال قائلا :

– ما وراءك يا أبا إسحاق ؟

– رأيت بنى العباس جميعاً يعرفون فضلك ، ويعظمون قدرك .

– وما الذى رأيت من أبى جعفر المنصور نفسه ؟

– لم أر منه ما تخاف على نفسك فيه ، ولقد رأيت منه سعة الصدر لك ورحابة البال دونك ، وهو ضمين لك بحسن العفو وجمال الرضى ، بعد جميل الاعتذار منك ، فهلا انتهزت هذه الفرصة الكريمة من أمير المؤمنين ؟

وأثر هذا الكلام الرقيق فى نفس أبى مسلم ، فاجتمع رأيه على الاعتذار ، ونبذ المخالفة ، والرجوع إلى حظيرة الخليفة . ولكن « نيزك » أحد قواده وثقاته نهاه عن ذلك ، فصمم على الذهاب ، مستسلماً للقضاء متمثلا بقول الشاعر :

ما للرجال مع القضاء محالة　　　ذهب القضاء بحيلة الأقوام

ولما لم يجد « نيزك » مفرًّا من صرفه عن عزمه قال له :

– إذا كنت عزمت على الرجوع إلى المنصور فالله يخير لك . ولكن احفظ عنى واحدة ! إذا دخلت عليه فاقتله ، ثم بايع من شئت من القوم فإن الناس لا يخالفونك .

مصرع الرجل . . .

ذهب أبو مسلم ينتحى من قصره مكاناً هادئاً قصيًّا ، وجلس يفكر فى كتاب يبعث به إلى المنصور معتذراً ومخبراً إياه بقدومه عليه . فلما فرغ من الكتاب أخذ يعد العدة للرجوع إلى الخليفة ، واستدعى إليه صاحبه الوفى مالك بن الهيثم وقال له :

– يا أبا نصر ! أنت خليفتى على العسكر هنا . فأقم حتى يأتيك كتابى . فإن أتاك مختوماً بنصف خاتمى فأنا كتبته ، وإن أتاك بخاتم كامل ، فاعلم أنى لم أختمه .

ومضى أبو مسلم فى طريقه المخوف الذى لم يدر ما خبأه له الغد فيه .

ونمضى نحن إلى قصر الخلافة لنرى ما الذى حدث لكتاب أبى مسلم إلى الخليفة المنصور . لقد وصل هذا الكتاب إلى أبى جعفر المنصور فلما فرغ من قراءته قال :

– والله لئن ملأت عينى منه لأقتلنه !

وكان أبو أيوب كاتب رسائل المنصور حاضراً ، فقال : « إنا لله وإنا إليه راجعون » ! وبات ليلته مؤرق الجفن لا يأتيه النوم ، وطال

تفكيره فى هذه الواقعة ، وخاف إن دخل أبو مسلم خائفاً فربما يبدو منه شر إلى الخليفة ، والحكمة والمصلحة تقتضيان أن يدخل آمناً حتى يتمكن منه الخليفة .

وفكر أبو أيوب فى وسيلة يدخل بها الطمأنينة والأمان على قلب أبى مسلم وهو فى طريق عودته إلى الخليفة ، فبعث إليه فى الطريق رجلا يستأذنه فى أن يوليه إحدى المدن فى خراسان ، حتى يشعر أبو مسلم ويستوثق أن الخليفة لم يغير رأيه فيه . . .

وجاء الرجل إلى أبى مسلم وهو لا يزال فى طريق عودته إلى المنصور وأبلغه أنه آت من طرف الخليفة ، وأن أمير المؤمنين فى شوق إليه . . وأنه يستأذن فى تعيينه حاكماً على مدينة «كسكر» !

وهنا انشرح صدر أبى مسلم واطمأن قلبه ، ولم يشك لحظة فى رضا المنصور عنه ، وإعظامه له . ولم يعلم أن ذلك مكر منه وتغرير به . .

وعجل أبو مسلم السير إلى المنصور ، وكأنه بذلك يستعجل أسباب منيته . . .

فلما قرب من المدائن أمر الخليفة أبو جعفر قواده وأمراءه أن يستقبلوه خارج البلد ، وأن يذهبوا جميعاً لتلقيه حتى لا يدخل فى نفسه شيء من الريبة ، وحتى تؤكد له هذه الحفاوة المصطنعة رضا الخليفة منه بما يتقى به المكروه . . .

ودخل أبو مسلم على المنصور فى مساء يوم ، وقد جنحت الشمس إلى

المغيب ، فأشار أبو أيوب على الخليفة أن يؤخر قتله تلك الليلة إلى الغد .

وبات أبو مسلم ليلته لا يريبه شيء ، فلما كان الغد دخل على المنصور فأظهر له الكرامة والتعظيم ، وأتقن التمثيل لهذا الدور الخطير حتى تتم الرواية فصولا . . .

واختار أبو جعفر لتنفيذ خطة مقتل أبى مسلم أحد أمرائه ممن يثق فيه ، فاستدعاه قائلا :

– كيف بلائى عندك ؟

– والله يا أمير المؤمنين لو أمرتنى أن أقتل نفسى لقتلتها !

– فكيف إذن لو أمرتك بقتل أبى مسلم ؟

فوجم الرجل ساعة ؛ لا يدرى ماذا يقول ، ولا بماذا يجيب ! فقال له أبو أيوب كاتب الرسائل :

– مالك لا تتكلم ؟ ؟

فأجاب الرجل فى صوت ضعيف خائف متردد : أقتله !

واختار المنصور أربعة من عيون الحرس وقال لهم :

– كونوا من وراء الرواق . فإذا صفقت بيدى فاخرجوا عليه فاقتلوه ! وبعث المنصور رسله إلى أبى مسلم ليحضر بين يدى الخليفة ، وهو يبتسم ، لا يتوقع شرا ولا ينتظر غدراً . فلما وقف بين يدى المنصور أخذ يعاتبه فى الذى صنع واحدة واحدة ، وأبو مسلم يعتذر من ذلك كله ، ثم قال :

– يا أمير المؤمنين ! أرجو أن تكون نفسك قد طابت على !

– أما والله ما زادنى هذا إلا غيظاً منك وحقداً عليك .

ثم ضرب المنصور بإحدى يديه على الأخرى مصفقاً كما كانت الإشارة بينه وبين حراسه الأربعة . فخرج عثمان وأصحابه ، وضربوه بالسيوف حتى قتلوه ، وهو يصيح : العفو ! العفو !

ولم يملك المنصور نفسه حين سمع كلمة العفو تصدر من بين شفتى الرجل الذى أرق نومه وأقض مضجعه زماناً طويلا – أن يتجه إليه وهو مضرج فى الدماء قائلا :

يا ابن . . . . . أتطلب العفو ، والسيوف قد اعتورتك من كل جانب ؟

ثم أنشد البيتين الآتيين :

زعمت أن الدَّين لا يقتضى فاستوف بالكيل أبا مجرم !
سقيت كأساً كنت تسقى بها أمرّ فى الحلق من العلقم !

وهكذا طويت صفحة الرجل الذى قامت على يديه الدولة العباسية ، فأمر المنصور أن تلف جثته فى عباءة ، وأن يلقى به فى نهر دجلة ، كما يلقى بالحجر الثقيل ، وكان هذا آخر العهد بأبى مسلم ، حيث طوته أمواج دجلة فى سرّها الرهيب . . .